سوريتنا

«عندما يقرر العبد أن لا يبقى عبدا فإن قيوده تسقط»
غاندي

صفحتنا على فيس بوك:
www.facebook.com/souriatna
souriatna@gmail.com souriatna.wordpress.com

سوريتنا | السنة الأولى | العدد (46) | 5 / 8 /2012 أسبوعية تصدر عن شباب سوري حر

الجمعية العامة للأمم المتحدة ناقشت مسودة المشروع السعودي لإدانة جرائم النظام

133 دولة تؤيد المشروع العربي لنقل السلطة في سوريا

صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، الجمعة، بالموافقة على مشروع قرار عربي تحت عنوان "الموقف في سوريا"، وذلك بدعم 133 دولة من بينها العراق، ومعارضة 12 دولة، وامتناع 31 دولة عن التصويت، من بينها لبنان والجزائر.

واعتبر رئيس المجلس الوطني السوري المعارض، عبد الباسط سيدا، أن القرار الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة يؤكد أن النظام السوري "فقد شرعيته".

وقال سيدا، في مؤتمر صحافي في أربيل عاصمة إقليم كردستان العراق، إن القرار الذي يدين استخدام الحكومة السورية للأسلحة الثقيلة، وينتقد عجز مجلس الأمن، "يؤكد أن هذا النظام فقد شرعيته" أمام المجتمع الدولي.

ويطالب المشروع السعودي بشأن سوريا، بانتقال سلمي للسلطة ورحيل بشار الأسد.

وفي افتتاح نقاش الجمعية العامة حول الأزمة السورية، دعا الأمين العام للأمم المتحدة، بان كي مون، الدول الكبرى إلى تجاوز "خلافاتها"، والتوصل إلى "هامش توافق" لإيجاد حل ينهي النزاع الدامي في سوريا.

وقال إنه "ينبغي تغليب المصالح الفورية للشعب السوري على الخلافات أو الصراعات من أجل النفوذ"، موضحاً أن "الفظائع التي تحدثت عنها الأنباء الواردة من حلب أكبر مدينة سورية قد تعادل جرائم في حق الإنسانية".

وأكد بان كي مون للجمعية العامة للأمم المتحدة، المؤلفة من 193 عضواً، أن "حلب باتت مركزاً لمعركة ضارية بين الحكومة السورية ومن يريدون إبدالها".

وشدد مندوب السعودية في الأمم المتحدة، عبد الله المعلمي، على أن "الوقت حان لبدء عملية انتقال سلمي للسلطة في سوريا".

ومن جانبه، أعرب مندوب سوريا في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بشار الجعفري، عن مخاوفه من تقديم دعم للجماعات الإرهابية في سوريا حال الموافقة على مشروع القرار، على حد تعبيره، وذلك في كلمة ألقاها قبل التصويت.

وتوجهت الدول العربية بمشروع قرار بصياغة سعودية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لإدانة جرائم النظام السوري التي راح ضحيتها حتى الآن أكثر من عشرين ألف سوري، وذلك بعد ساعات من إعلان المبعوث الأممي إلى سوريا، كوفي عنان، أنه من المستحيل إقناع نظام الأسد بوقف القتل.

واستبقت روسيا هذه الجلسة بالتأكيد على أنها ستقف في وجه القرار، في حين أعلنت الولايات المتحدة وفرنسا الرئيس الحالي لمجلس الأمن دعمهما الكامل لمشروع القرار العربي، الذي ينذر بخطورة استخدام الأسلحة الكيماوية في المدن السورية.

الجيش الحر: مشروعنا للمرحلة الانتقالية يشرك الجميع

أي حكومة تشكل هنا أو هناك لن ترى النور إن لم تحظ بموافقتنا وكل القوى الثورية الحقيقية

عرضت القيادة المشتركة للجيش السوري الحر في الداخل، ومكتب التنسيق والارتباط، وغيرها من هيئات الجيش الحر تصور لـ"مشروع وطني" للمرحلة الانتقالية يشمل إعادة تشكيل السلطات وضمان المشاركة الأوسع فيها لكل قوى الثورة الفاعلة على الأرض المدنية والعسكرية والثورية وقوى وشخصيات المعارضة.

وأتى هذا المشروع ليحقق مرحلة انتقالية آمنة ومتوازنة رداً على "المخاطر المحدقة" بالثورة السورية و"المشاريع الخطيرة التي تحاك في دوائر مغلقة، ولوضع حد للتشرذمات في صفوف القوى الوطنية والمعارضة في الداخل والخارج".

وشددت قيادة الجيش الحر على أن "أي حكومة تشكل هنا أو هناك لن ترى النور ولن تحظى بأي شرعية وطنية وثورية إن كانت لا تتبنى كامل مطالب الثورة دون نقصان أو مواربة ولم تحظ بموافقة القيادة المشتركة للجيش السوري الحر في الداخل وكل القوى الثورية الحقيقية الفاعلة على الأرض في الداخل".

وفي هذا السياق كشفت القيادة أنها تقف "على مسافة واحدة من كل قوى المعارضة في الداخل والخارج"، مؤكدة أن "المؤسسة العسكرية للثورة، وبعد تحقيق المرحلة الانتقالية بشكل صحي وسليم، ستعود إلى ثكناتها ولن تتدخل في الحياة السياسية لسورية الجديدة، حفاظاً على وحدتها واستقلاليتها والتركيز على مهمتها الأساسية، وهي الدفاع عن سوريا وشعبها".

إنشاء مجالس وهيئات جديدة

وأوردت القيادة في بيان لها تصورها لمشروعها الوطني، متمنية على "كل القوى الثورية الفاعلة على الأرض وقوى وهيئات المعارضة في الداخل والخارج مناقشة المشروع بتمعّن".

ويتضمن مشروع القيادة المشتركة للجيش السوري الحر للمرحلة الانتقالية تأسيس "المجلس الأعلى للدفاع" الذي يضم كل قادة المجالس العسكرية في المدن والمحافظات السورية وكبار الضباط المنشقين والضباط المساهمين في الثورة. وتكون أولى مهام هذا المجلس تأسيس مجلس رئاسي من ست شخصيات مدنية وعسكرية لإدارة المرحلة الانتقالية.

ويشتمل المشروع أيضاً على تأسيس "المجلس الوطني الأعلى لحماية الثورة السورية" الذي يعتبر بمثابة مؤسسة برلمانية لمراقبة عمل الأجهزة التنفيذية. كما يتضمن إنشاء "الهيئة الوطنية للإدارة المحلية ومجالس المحافظات" التي ستشكل من قوى الحراك الثوري الفاعلة على الأرض التي تمكنت من إدارة العديد من المناطق وتضم ممثلين عن جميع المحافظات.

وينص المشروع أيضاً على إنشاء هيئات مختلفة لشؤون اللاجئين والمهجرين ولرعاية أسر الشهداء والجرحى ومصابي الحرب وهيئة المصالحة الوطنية، وكذلك هيئة للعليا للعدالة الانتقالية وحقوق الإنسان، ولجنة لصياغة الدستور الجديد تتشكل من مرجعيات قانونية ووطنية.

واقترحت قيادة الجيش الحر تصوراً لحكومة انتقالية تتألف من 31 وزيراً و8 نواب لرئيس الحكومة، يرأسها شخصية مدنية، على أن تعين "المؤسسة العسكرية للثورة" الشخصيات المدنية التي ستتولى وزارات الداخلية والدفاع وشؤون الرئاسة.

كاتبة "وردة الصحراء" تخرج عن صمتها: أسماء قاتلة

تساءلت: هل هي مخدرة أم أنها فقط متواطئة وغير مبالية بعمليات القتل الحاصلة

العربية نت

خرجت كاتبة المقال الشهير "وردة الصحراء" الذي نشر في مجلة "فوغ" قبيل الانتفاضة السورية، و"سوق لصورة السيدة الأولى في سوريا أسماء الأسد"، عن صمتها واصفة إياها بالقاتلة والمخادعة، ولافتة إلى أنها خدعت لإجراء المقابلة المذكورة.

بعد الحملة الكبيرة التي شنت على هذا المقال مؤخراً، على الرغم من أنه يعود إلى العام 2010، قررت جوليت باك أن تكشف المستور أو خفايا المقال المذكور، والسبب الذي دفعها للقاء عائلة الأسد، والترويج لصورة أسماء في مقال شبيه بالمذكرات، نشرته مجلة "نيوزويك" في عددها الأخير ونقله موقع "The Daily Beast".

هاجمت باك كل من كان له علاقة بمقالها السابق، وحملت مجلتها مسؤولية توقيت نشره واختيار عنوانه، وشرحت كيف ألح عليها مسؤول التحرير في المجلة للذهاب إلى سوريا ولقاء الأسد «بناء على طلب قسم العلاقات العامة الخاص بالقصر الجمهوري السوري ووكالة Brown Lloyd الأمريكية للعلاقات العامة ومتدربة لم تكن سوى ابنة السفير السوري في الأمم المتحدة».

حينها، قدمت باك حججاً كثيرة للامتناع عن الذهاب إلى دمشق، منها «أنهم لا يريدون لقاء صحافية يهودية» أو «أرسلوا صحافيا سياسيا»، لكنها انصاعت أخيراً لقرار مسؤول التحرير.

وبعد أن تشرح جوليت مطولاً عن الأسباب التي دفعتها في النهاية إلى قبول المهمة، مهمة لقاء عائلة الأسد، مبررة الدوافع التي جعلتها تقبل بذلك، تعود لتؤكد أنه كان يجب أن ترفض في الحال.

وفي هذا السياق، تؤكد أنها لم تكن تعلم أنها ستقابل قاتلاً، إذ "تبين لها أن الطبيب الشاب الوديع بشار الأسد مجرم أكثر من والده، بعد قتله الآلاف من شعبه". وتتابع متأسفة على الخطأ الذي ارتكبته والذي كلفها الفصل من المجلة التي عملت فيها منذ أن كان عمرها 23 سنة، وتقول قابلت "الشيطان وزوجته" (عن الأسد وأسماء).

وتضيف قابلت الثنائي الرئاسي الذي راح يتباهى بحياة الترف التي يعيشها بعيدا عن الشاشة، حياة رأت أنها "خيالية" تحاكي نسخة شرق أوسطية من "ذا ترومن شو".

وتتابع قائلة إن أسماء في ذلك الحين كانت بصدد توقيع اتفاقية مع متحف اللوفر الفرنسي الشهير بشأن الآثار السورية، مضيفة "أردت أن أعرف المزيد عن المدن القديمة كحلب ودمشق. فقيل لها إن المتدربة شهرزاد الجعفري، ابنة السفير السوري لدى الأمم المتحدة وهولتزمان سترافقانها في جولة بدمشق".

وفي سياق روايتها لتفاصيل الأيام التي قضتها في سوريا مع عائلة الأسد، تشير إلى أنها سألت الرئيس لماذا أراد أن يصبح طبيب عيون، فكانت إجابته لأنه قلما يشهد حالة طوارئ وليس فيه إلا القليل من الدم، وهنا تكرر الصحافية العبارتين ساخرة "لا طوارئ وقليل من الدم".

وتختتم باك مذكراتها متسائلة "ما الذي يشبهه الآن مقر الزوجين الفاخر بنوافذه الضخمة، وهل ما زالت عائلة الأسد هناك؟ وهل ما زالت أسماء في سوريا أم أنها هربت؟".

إلى ذلك، تستطرد قائلة إنها عندما رأت صور أسماء إلى جانب زوجها توزع الحزم الخيرية قبيل الاستفتاء الذي حصل، تساءلت أهي مخدرة، أم أنها فقط متواطئة وغير مبالية بعمليات القتل التي تحصل.

أما الأهم من ذلك كله، فتؤكد جولييت أنها كانت تتساءل عن مصير مشروع "مسار" الذي روجت له أسماء في مقابلتها، والذي يهدف إلى تمكين 6 ملايين من السوريين الشباب ليصبحوا "مواطنين فاعلين" و"جزءاً من التغيير"، بحسب ما ادعت.

فهل كانت أسماء واعية أو مدركة أنها بمشروعها هذا تمكن أو تحضر أطفال سوريا لإطعامهم إلى جلادي زوجها؟

والأبشع من ذلك، تضيف جولييت، ما نفع الوعي إن كانت السيدة، سيدة جهنم الأولى بكل ما للكلمة من معنى!!

أوجاع وطن

هذا وطننا والمسيح من هنا

■ سلام الكواكبي

من الملفات التي تتلقفها وكالات الأنباء وخارجيات الدول «المعنية» عندما يتم التطرق إلى الشأن السوري، يبرز ملف الأقليات الدينية إلى الواجهة كقميص عثمان يؤذّر من ضرورة وضوح الموقف وتحديد السياسات. فمن تصريحات كلينتون حول ضرورة تطمين الأقليات في أية عملية تحوّل سياسي نحو الديمقراطية إلى تهديدات لافروف المتعلقة بحماية المسيحيين إلى التصريحات المتناقضة من جانب الفاتيكان التي تشير حينا للقلق حيال مصير المسيحيين بعد تغيير النظام وفي أحيان أخر، تنفي تعرضهم إلى أية إساءة من قبل دعاة الحرية. ونجد أن تصريحات بعض ممثلي الكنيسة الرسميين المعينين بموافقات أمنية تغذي هذه المخاوف بل وتؤجج الشعور بأن الخطر آتٍ لا محالة ويجب نصرة الظلم والاستبداد لأنه يحمي الأقليات.

* * *

ربما تأخرت المعارضة السياسية بإنتاج نصوص واضحة عن مستقبل مشترك لجميع السوريين وتخصيص الأقليات بعبارات مطمئنة. ويبدو أن الخيار كان بالتوجه إلى المواطن السوري وليس إلى المسيحي السوري أو العلوي السوري إلخ. وقد توضّح هذا الخطاب الآن في الأدبيات السياسية لقوى المعارضة حتى الدينى منها. وتجدر الإشارة إلى بعض ممارسات جزء من الحَراك العسكري المساعدة على تغذية آلة التخويف من مستقبل غير مستقر سيتعرض له من هو ليس على دين «الغالبية».

* * *

ولم يعد من المفيد استعادة الماضي المجيد والذي يُشير إلى بروز أسماء مسيحية في الحقل العام دون تمييز للدلالة على إدارة المجتمع السوري الفطرية للتنوع. لقد أصبحت هذه الاستعادة مستهلكة في زمن معقد يحمل الكثير من المعطيات الجديدة المتعلقة بإدارة هذا التنوع من قبل أنظمة استبدادية استقطبت ممثلي جميع الأديان واستغلت الانقسامات وعززتها وطورت التطرف وأصّلته. بالمقابل، يجب على من يراقب المشهد السوري أن يتعرف عن قرب على تاريخه السياسي الحديث ومشاركة جميع مواطنيه في بناء الدولة/الأمة على قصر عمرها المجهض من قبل المستبد، وبالتالي بإمكانه أن يستعرض مساهمات المنتمين إلى مختلف الأديان والطوائف في تحقيق الاستقلالين عن الامبراطورية العثمانية أو عن الانتداب الفرنسي وفي تأسيس الأحزاب السياسية والصحافة والعمل المدني.

* * *

إن تصريحات بعض رموز الكنيسة الرسميين تضع مسيحي سوريا في خانة الأجانب وتدعوهم إما للحياد أو إلى دعم سلطة تمارس العسف تجاه مختلف أفراد الشعب، وبمرور الأيام، تتبدى الفجوة العميقة بينهم وبين رعيتهم المعنية كما السوريين الآخرين بمستقبل هذا الوطن، كما بينهم وبين كهنتهم الذين يقومون بأعمال إنسانية جبارة تدعم بالمحصلة الحَراك الشعبي السلمي. إن السوريين المسيحيين ليسوا بحاجة إلى شهادة وطنية من أحد، بل هم مؤهلون ليكونوا من مانحيها في الإطار المطلق، وليسوا بحاجة إلى ممثلين عنهم يسيئون إلى فرادة تجربتهم وإلى عمق اندماجهم متناسين رسالة عبدالرحمن الكواكبي لهم في طبائع الاستبداد «دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء».

الشروق 4 / 8 / 2012

لاجئون سوريون يتخذون من مدرسة لبنانية سكناً مؤقتاً

انطلقت من مكبرات الصوت بالمساجد دعوات تطالب سكان أحياء دمشق بمغادرة منازلهم في حين كانت طائرات الهليكوبتر تطلق الرصاص لضمان انصياع السكان لهذه الدعوة.

والآن تسكن 18 أسرة من العاصمة السورية مبنى مدرسة في سهل البقاع اللبناني.

لكنهم يزعمون أن السلطات اللبنانية ومنظمات المساعدات الإنسانية تركتهم لمصيرهم. ولا يعرف هؤلاء إلى أي مكان يذهبون عندما تعود المدرسة للعمل بعد انتهاء العطلة الصيفية.

وهذه العائلات جزء من موجة من اللاجئين السوريين نزحت إلى لبنان المجاور هربا من الصراع الذي تحول إلى حرب أهلية في بلادهم. ودخلت الانتفاضة السورية شهرها السابع عشر واقتربت أحداثها من معقل الرئيس السوري بشار الأسد في دمشق.

وعلى مدى شهور يتابع سكان دمشق في خوف اقتراب العنف من ديارهم إلى أن اشتبكت قوات المعارضة المسلحة مع القوات الحكومية في شوارع الأحياء السكنية مثل حي السيدة زينب.

وقال أبو عبد الرحمن وهو احد اللاجئين السوريين المقيمين في المدرسة التي تقع في قرية المرج «فجأة وفي جوف الليل دعانا أئمة المساجد عبر مكبرات الصوت: على جميع سكان السيدة زينب الخروج من منازلهم».

وفرت زوجته وابنته ذات الثلاثة أعوام إلى منطقة مجاورة على أمل العودة قريبا. لكن بعد يومين أطلقت طائرة هليكوبتر النار على جنازة في حي السيدة زينب.

وقال أبو عبد الرحمن «حملت عشرات الجثث إلى المسجد. بعض الأسر دفنت قتلاها في السر. في اليوم التالي رحلت بملابسي فقط».

ووجدت زوجته العراقية (19 عاما) التي فرت من العراق إلى سوريا بعد الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق عام 2003 نفسها مضطرة للهرب مرة ثانية.

وقالت وهي تجلس على مقعد للدراسة وتخفي وجهها بحجابها «أشعر بأمان أكثر فعلى الأقل تنام بنتي الآن ليلا».

لكنها ما زالت تبكي موت طفلها الذي كان يبلغ عمره ثلاثة أيام ومات بسبب استنشاق الدخان بعد انفجار ضخم في أيار بعد ولادته في مستشفى محلي.

وتشبه قصة أبو عبد الرحمن قصص 17 أسرة أخرى فرت معه إلى هذه المدرسة في المرج التي يسكنها 12 ألف نسمة.

وفر اغلبهم من دمشق في منتصف يوليو تموز عندما سيطرت قوات المعارضة المسلحة على أجزاء من العاصمة ورد الجيش بهجوم مضاد.

ويقول البعض أن رجالا ملثمين جاءوا إلى بيوتهم ويقول بعضهم أنهم تلقوا إنذارات مكتوبة من تحت أبواب منازلهم. وغادر الجميع منازلهم لا يحملون سوى أوراق هويتهم وقليلا من ملابسهم ربما على أمل العودة قريبا.

وقالت امرأة ترتدي فستانا اصفر وحجابا اسود وهي تنظر إلى رضيعها الذي يبلغ من العمر أربعين يوما وهو نائم في مهده «كل شيء في بيتي جديد كنت أقوم بالبناء منذ أربع سنوات ولم يتسن لي أن أتمتع به».

واتخذت مدرسة المرج الثانوية بسرعة طابع مخيمات اللاجئين.

فقد أخرجت المقاعد والمكاتب إلى الممرات لإخلاء الأماكن للعائلات داخل الفصول. بينما ينظف الأطفال الأرضيات لتظهر على ما يجب أن يكون عليه بيت عادي. وتحولت أدراج التلاميذ إلى صيدليات صغيرة ملئت بالأدوية.

ويقول بشير جراح الذي ينظم مركز اللجوء المؤقت أن المدرسة امتلئة بعدد 67 شخصا من بينهم 25 طفلا.

وقال في فصل دراسي تحول إلى مكتب «نضطر كل يوم إلى رفض ثلاث أو أربع عائلات».

وعرض جراح كراسة كتب فيها أسماء المنظمات التي زارت المدرسة ومن بينها المجلس الدنمركي للاجئين ومفوضية الأمم المتحدة العليا لشؤون اللاجئين وقال «المنظمات الدولية جاءت وسألتنا عما نحتاج إليه ثم اختفت».

وقال «الحكومة لم تهتم. يوما ما جاء شخص من الشرطة وسأل عن عدد اللاجئين ثم رحل»

وقال إن اللاجئين في المدرسة يعيشون تقريبا على التبرعات. وتوقف سائحون سعوديون عند المدرسة قبل اسبوعين واعطوا كل أسرة 200 دولار وأعطوا قادة اللاجئين 3000 دولار إضافية لإدارة المدرسة كمخيم للاجئين.

وتقدم بعض المطاعم وجبات من اجل إفطارهم الرمضاني بينما قدم بعض السكان قدرا من المال. لكن لم يتضح بعد مصير اللاجئين عندما تعود المدرسة للعمل في أيلول.

وقال رجل يجلس في ممر وهو يحمل رضيعه الذي يبلغ من العمر سبعة أشهر «لا يمكنك أن تعرف ما إذا كان الوقت نهارا أو ليلا في المدرسة بسبب الضوضاء الشديدة. إنها ليست حياة».

وقال «كل ما اسأل عنه هو ما الذي سنفعله عندما تعود المدرسة إلى العمل؟».

وأقام الأردن مؤخرا مخيما للاجئين الذين يتدفقون على حدوده لكن المسألة تمثل حساسية خاصة في لبنان حيث يهيمن حزب اللّه الشيعي وحلفاؤه على الحكومة التي لا تريد أن تبدو وكأنها تنحاز إلى جانب من جانبي الصراع.

وسجلت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين نحو 35 ألف لاجئ سوري في لبنان لكن عدة آلاف آخرين يعتقد أنهم في لبنان ردا لجميل استضافة السوريين للاجئين لبنانيين عام 2006 فروا من هجوم إسرائيلي ضد حزب اللّه.

وقال جورج مونتاني رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر في لبنان «إذا استمر الموقف في سوريا حتى الشتاء القادم وما بعده فعلينا كمجتمع دولي وعلى الحكومة اللبنانية إن نفكر في حل دائم للاجئين في لبنان».

وانتقد جراح ما وصفه بالبطء في مواجهة الحكومة للازمة.

وقال «عليهم أن يتعاملوا مع الموقف بشكل إنساني لا سياسي. استضافنا السوريون في ديارهم ومدارسهم خلال حرب 2006 فلماذا نعاملهم بشكل مختلف.

النظام السوري يترك القمامة في المدن والشعب يرد

شباب داريا وأطفالها يطلقون حملة تنظيف متظاهرين على وقع نظافة المدينة

يبدو ثوار سوريا وجيشها الحر كالأم التي تخاف على أبنائها، ويبدو خروجهم في حملة "إذا البلدية ما اشتغلت البركة بالشباب" في مدينة داريا بريف دمشق لتنظيف المدينة كمن يرعى بيته، خصوصا بعد الحالة المزرية التي وصلت لها المدينة بسبب عقاب النظام لها بتكديس أكوام القمامة، لدرجة بات من الصعب الوقوف في وجه الأمراض التي تسببها تلك القمامة.

وتبدو المظاهرة التي هتفت لإسقاط النظام بعد الانتهاء من الحملة، ورفع أدوات التنظيف في تلك المظاهرة دليلا جديداً على أن هناك شعبا لا يقهر..

حملة التنظيف اشترك فيها الأطفال والشباب والثوار وأفراد من الجيش الحر، غابت عنها البنادق وحضرت الروح الواحدة.

مظاهرة تحمل في طياتها وهتافاتها وتلاحم أبنائها الكثير من الروح الواحدة التي افتقدها الشعب السوري لسنوات طويلة، وإن كانت داريا أول من أطلق هتافا "وهي داريا هـ" باللغة السورية الدارجة والتي تعني أن داريا موجودة هنا، فإنها لا تتخلى عن هتافها هذا في كل المظاهرات.

عرفت داريا بوقوفها في وجه النظام السوري مع بداية الثورة السورية، وسمع العالم كله بقصف داريا واقتحامها المتكرر، وفقدانها للكثير من أبنائها على مدة سنة و8 أشهر.

النظام السوري قرر أن يعاقب شعبه بالقمامة والحشرات والأمراض السارية المؤكدة، وهي بالتأكيد ابتكار جديد يحسب له على اعتبار أنه استنفذ الأساليب الأخرى من قتل وقصف واعتقال وتعذيب.

مظاهرة لـ"رجال من خشب" ترعب الأمن السوري

انطلقت من ساحة التربة وأفزعت البنادق التي أطلقت الرصاص

جفرا بهاء

"خرجت مظاهرة من الخشب والقماش في مدينة داريا بريف دمشق، تطالب بإسقاط النظام ومحاسبة الرئيس الأسد".

يبدو الخبر هكذا أقرب للنكتة أو السخرية، ولكن مدينة داريا جعلت من خبر كهذا حقيقة، وهذه المرة لم يكن الهدف من وراء هذا الابتكار السوري هو السخرية من نظام الأسد، وإنما العكس تماماً، كان الهدف وبحسب أحد ناشطي مدينة داريا: "فكرة مظاهرة الفزاعات أو الأشخاص الخشبية هي طريقة جديدة للتظاهر، توصل رسالةً أنه لو لم يبقَ رجال ونساء في سوريا فسوف تخرج الشخوص الخشبية لتتظاهر ضد النظام وترفض سياساته".

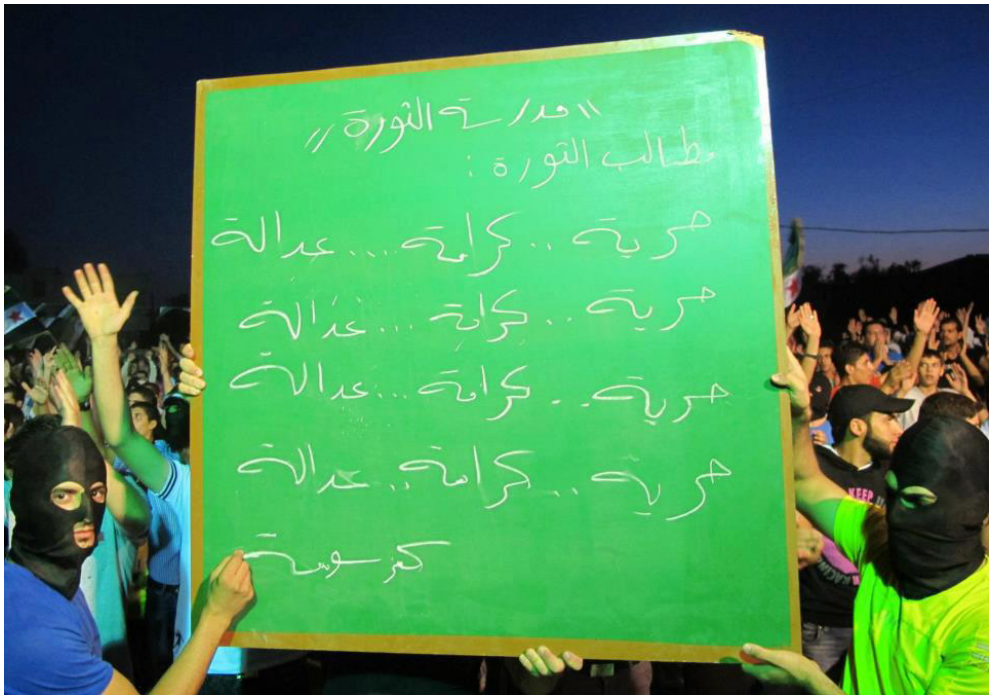

داريا مدينة في ريف دمشق، خرجت للتظاهر مع بداية الثورة، لتنال هي وجارتها مدينة المعضمية عقاباً متواصلاً وقاسياً من قبل النظام السوري، وقبل حوالي 15 يوما، وبعد العمليات الوحشية التي قام بها عناصر الأمن والشبيحة في المدينة، قام عددٌ من شباب داريا بمواجهة هؤلاء بطريقة جديدة مبتكرة.

قام شباب داريا بتحضير عدد من الفزاعات على شكل جسم الإنسان وألبسوها ثيابا متنوعة ظهرت بها الفزاعات كأشخاص في أعمار مختلفة، وتم لصق شعارات متعددة على هذه الفزاعات فبدتْ كل فزاعةٍ كمتظاهر في قلب المظاهرة.

ووضعت الفزاعات في وسط المدينة في ساحة تربة داريا بعد أن قطعوا الطرقات المحيطة، تحسباً لعودة الموكب الأمني فجأةً لتكون مكانا للمظاهرة الحدث، لاسيما أن هذه الساحة هي المكان المفضل لعناصر الأمن في كل اقتحام للمدينة يتمركزون وينتشرون فيها ويرهبون الناس منها.

وأعدوا المكان بحيث يكون جاهزاً لاستقبال الموكب الأمني في صباح اليوم التالي، وفي صباح اليوم التالي الأحد 2012/07/16 دخل موكب الأمن مدينة داريا ووصل إلى ساحة التربة ليتفاجأ بوجود الفزاعات هناك، فما كان منهم إلا أن بدؤوا بإطلاق النار الكثيف عليها لتخريبها وتكسيرها، ثم انسحبوا عائدين إلى أوكارهم، ليقوم الشباب بعد ذلك من جديد بإعادة ما تبقى «حياً» من الفزاعات إلى مكانها لتتابع ما سماه ناشط "نشاطها الثوري".

ولم تشهد المدينة عودة الموكب الأمني الذي توارى منذ ذلك الحين ولجأ إلى أسلوب جديد من الوحشية من خلال قصف المدينة ببيوتها وأبنائها وفزاعاتها بقذائف الهاون، التي كانت تنطلق من مطار المزة العسكري لتحط عشوائيا في أرجاء المدينة.

حكايات سورية تختلف كل يوم ولا ينتهي جديدها أبدا، تبتكر أساليب ستسجل في التاريخ على أنها ابتكارات سورية.

فزاعات داريا لا تخاف من الأمن، وإنما الأمن هو من يخاف منها، ولن يستطيع إرهابها أو قتلها.

جانب من الإفطار الجماعي الذي دعت فيه مطرانية بيرود مسيحيها للصيام تضامناً مع المسلمين في المدينة تأكيداً منهم على وحدة الشعب السوري ضد الطاغية الطائفي وأزلامه

عسكرة الثورة في الميزان

■ ياسر مرزوق

ما دعاني لملفنا اليوم، هو كتابٌ قرأته أخيراً لعميد الصحافة الباكستانية "أحمد رشيد" بعنوان "طالبان: الإسلام والنفط والصراع الكبير في وسط آسيا"، يصف فيه حال زعماء الجهاد في مناطق أفغانستان المختلفة، حين أدركوا حقيقةً بالغة الأهمية. مؤداها أن الاتحاد السوفيتي سوف يخرج من أفغانستان، سواء كان خروجه بهم أو بغيرهم، وهنا فإن الشعور الذي ساد بينهم وأصبح معياراً لتصرفاتهم هو "أن كل طرف سوف يتحدد مستقبله بمقدار ما ادخر لنفسه من الإمكانيات المتاحة له الآن لكي يجاهد، وليس بكمية ما بذل من هذه الإمكانيات حتى يبلغ الجهاد غايته وتجيء ساعة الحقيقة" الانتظار والاحتفاظ بالقوة حتى تكون هذه القوة أداةً للسلطة عندما تنتهي الحرب..

عدت من أفغانستان، لحضن ثورتنا المجيدة، عروس الربيع العربي وملحمته، هي من اعتمدت الأغنية واللوحة والشعار الجامع والنكتة الذكية والحشود الشعبية الضخمة، التي استعادت المجال العام بعد عقود من إقصائها عنه. إيمانٌ باللاعنف وتمسكٌ بوحدة الشعب ونبذ للعنف والطائفية، أذهل العالم، في حديثٍ للمفكر العربي "عزمي بشارة" مع قناة الجزيرة صمت عن الكلام حين سأله محاوره عن ثورتنا في بدايتها، ثم قال أعراسٌ وأهازيج، ملاحم الشعب السوري ليس لي الحديث عنها والتزم الصمت.. كيف لا والثورة المدنية هي فعل أخلاقي إيماني وطني.

أمام هذه الثورة الملهمة اختار النظام الحل الأمنيّ في استعادة لمناخ الثمانينات، وهو خيارٌ يتقنه بالوراثة، قتل جهنمي يومي وتهجير وتنكيل، وكل أنواع المحرمات في شرائع حقوق الإنسان وأديانه، محرقة وحرب إبادة لا يشق لها غبار تحت سمع وبصر المجتمع الدولي..

وعندما أفكر بهذه الثورة أعجَبُ من أمرها: كيف بدأت وكيف تطورت وكيف عَبَرت كل العقبات والحواجز وحافظت على قوتها وعنفوانها، كيف استطاع الذين يحتكون لحظياً بهذا الهدر لكرامة الإنسان ورموزه ومعتقداته وأعراضه بالحفاظ على السلمية والمدنية طيلة سبعة أشهر باعتراف رأس النظام في خطابه أمام مجلس الشعب، متناسياً ما رددته أبواقه منذ اللحظة الأولى عن مندسين وعصابات مسلحة.. إنها عناية الآلهة ترعاها منذ البداية، وأكاد أهتف مع ذلك الذي هتف منذ أيام الثورة الأولى: دعوها فإنها مأمورة.

هي الآلهة وحدها التي تقف مع الشعب السوري الأعزل، وهي وحدها من ستلاحق النظام وتحاسبه على جرائمه أعتى الحساب، جرائمٌ تبدأ بامتهان الشعب الثائر ووصفه بالجرثومة تارةً، وبالمجرم واللص تارةً أخرى ولا تنتهي.. لكن أم الجرائم، كانت عسكرة الثورة السورية ودفعها دفعاً إلى السلاح. واستخدام السلاح هو ما كان يتمناه النظام وأجهزته الأمنية ليثبت صورة واقع معيّن على الأرض، يراه العالم أجمع في الإعلام ومواقع التواصل. وذروة هذا المسار كانت في وصول المراقبين العرب وتفحصهم الواقع على الأرض، ثم كتابة تقرير نهائي أشاروا فيه إلى "وجود عنصر مسلح غير مخاطب بالبروتوكول".. ومرة أخرى تنسخ الديكتاتوريات عن بعضها بعضاً إذ تستفزها حركات الاحتجاج السلمي لأنها تكبل يدها الأمنية المتوحشة وتسحب منها مسوغ "الضرب بيد من حديد". ولهذا فإن الممارسة التقليدية هي توفير السلاح في الشارع وإغراء أية عناصر باستخدامه وسط الاحتجاجات السلمية، وإن لم ينجح هذا فلا بأس من قتل بعض عناصر الأمن هنا أو هناك واتهام "العناصر الإرهابية" و"المتسللين" بذلك، وبهذا يتم قمع الثورة السلمية بأعتى قدر من البطش المسلح. والنظام السوري اتبع هذا النص حرفاً بحرف، وعلى مدار أشهر طويلة من الاحتجاج السلمي أمعن في القتل والبطش وفي عسكرة الاحتجاجات، حتى صارت الثورة مسلحة فعلاً. لتعيش سورية مشهداً مُركّباً ومُرعباً في آنٍ. هناك ثورة شعبية ضد نظام استبدادي دموي، وهناك صراع مسلح بين معارضة مسلحة والنظام، وهناك صراع دولي على الداخل. والمركبان الأخيران خطيران على الثورة السورية وشرعيتها؛ لأنهما وباختصار، يقتلان الجانب المدني في التغيير، ليصبح مستقبل الصراع مرتبطاً بمصير قوتين مسلحتين على الأرض، تتقاتلان بالسلاح الخفيف والثقيل، ليكون لهما بالتالي كامل الصلاحية في القتل والاستهداف والأسْر لكل بحق الآخر.

و النظام وحده هو المسؤول عن اتجاه الثورة للعسكرة وتنحي الطابع السلمي فيها، ثنائية السّلميّة، العسكرة، تختزل في داخلها سيرورة الثورة السورية ومآلاتها وأهدافها ومستقبل سوريا جميعاً. وأي حدّ في هذه الثنائية، عندما يغدو خياراً لا يظل مجرد شكل للثورة وعلامةٍ خارجيةٍ عليها، بل يصبح جوهرها الذي يتحدد تبعاً له، كل شكل وجوهر قادمين على صعيد الإنسان والوطن وحلم الدولة المأمولة... وسبق أن أشارت لجنة المراقبين العرب في تقريرها النهائي إلى أن "ظهور العنصر المسلح في المعارضة كان نتيجة الاستخدام المفرط للقوة من قبل النظام نفسه". هذا ويردّد البعض معلومة، لا يمكن التحقق من صدّتها عن أحداث الثمانينيّات، تقول إنّ قائد سرايا الدفاع رفعت الأسد كان يعرف أنّ الإخوان المسلمين يتسلّحون، وترك لهم البابَ مواربًا لتحقيق ذلك، كي يتمكّن فيما بعد من إيجاد مبرّر أمام الجمهور السوريّ للبطش بهم، جارفًا في طريقه كل التيّارات المعارضة بذريعة "مكافحة الإرهاب". الأمر نفسه يتكرّر اليوم، إذ لا يساورنا أدنى شكّ في أنّ السلطة غضّت النظر على التسلّح وشجّعته، وصعّدتْ عنفهَا بغية دفع الناس إليه، إلى الأرض الوحيدة التي تجيد اللعبَ فوقها.

لكن يبدو تحميل النظام وحده مسؤولية عسكرة الثورة، مجانباً للصواب، فهل جرب السوريون خيار الثورة السلمية وفشلوا به ليلجأوا للسلاح، أم أن خيار السلمية لم يجرب والمسؤولية تقع على عاتق الأغلبية الصامتة التي بقيت صامتة، أغلبية استطاع النظام ضمان صمتها بحفنةٍ من رصاص يرشقها على جموع المتظاهرين هنا وهناك، أغلبيةٌ ارتأت أن تبقى في بيوتها، بدلاً من أن تملأ الساحات، نجدةً للمدن المنكوبة، ولتسقط النظام بحكم الأمر الواقع..

ألم تكن المعارضة المتشرذمة التي تفاجأت بالثورة شأنها شأن النظام مسؤولةً أيضاً، عن إلجاء السوريين للسلاح وهي التي كان اختلافها وارتهان بعض أطيافها، لهذه الدولة أو تلك، المبرر الأسهل للتقاعس الدولي عن إغاثة الشعب المنكوب، المعارضة التي فشلت في أقناع الأطراف الإقليمية المتحالفة مع النظام بوجود بديل مقبول عنه..

بات تحميل المسؤولية لهذا الطرف أو ذاك كلاماً يترك للتاريخ، إذ ليس بالإمكان أفضل مما كان، وبات السلاح أمراً واقعاً، باعتراف الجميع، وقد أعلن مسؤولٌ كبير في الأمم المتحدة أن سوريا باتت "في حربٍ أهلية" وأن الحكومة السورية فقدت السيطرة على أجزاء واسعة من أراضيها وعلى مدن سورية عدة لصالح المعارضة مع الارتفاع الكبير في مستوى العنف الذي تشهده المدن والبلدات السورية التي باتت تقصف بالطائرات المروحية وفي زيادة أعداد الضحايا وتواصل المجازر التي أصبحت متنقلة في المدن السورية.

وأضحى من السذاجة السياسية الحديث عن التزام السلمية، ورمي السلاح، والجيش الحر بات قاب قوسين أو أدنى من السيطرة على حلب بكاملها وبالتالي الشمال السوري، وهو ما تنبأ به تقريرٌ غربي من تأليف ضابط حالي في الجيش الأميركي عمل في الاستخبارات العسكرية خلال الفترة من 2006 إلى 2011، وخدم في العراق وأفغانستان، ويدعى "جوزيف هوليداي". فهو يقول بوضوح إن المعارضة الثورية السورية المسلحة باتت تتسلم كميات مستمرة من الأسلحة والمال، وإنه بات لها قيادات وقدرات محلية وتسيطر على مساحات واسعة، وإنها قد تتحكم في الجزء الأكبر من سوريا قريباً إذا استمر وصول المساعدات لها.

كما أشار في تقريره إلى أن عنف النظام السوري في مضاعفة المقاومة المسلحة له الدور الأكبر فقذف المدن يؤدي لمزيد من العسكرة المضادة، وحملات "الشبيحة" والقتل الطائفي تؤدي لرغبات انتقامية، وقمع المعارضة التي تحمي المدن يؤدي لتحولها لحرب عصابات.

ويقول المؤلف إن استمرار وصول المساعدات المالية والأسلحة للثوار السوريين خاصة من دول الخليج كالسعودية وقطر يعني مواصلة الثوار في سيطرتهم وقدراتهم، مما قد يمكنهم قريباً من السيطرة على مساحة أكبر من

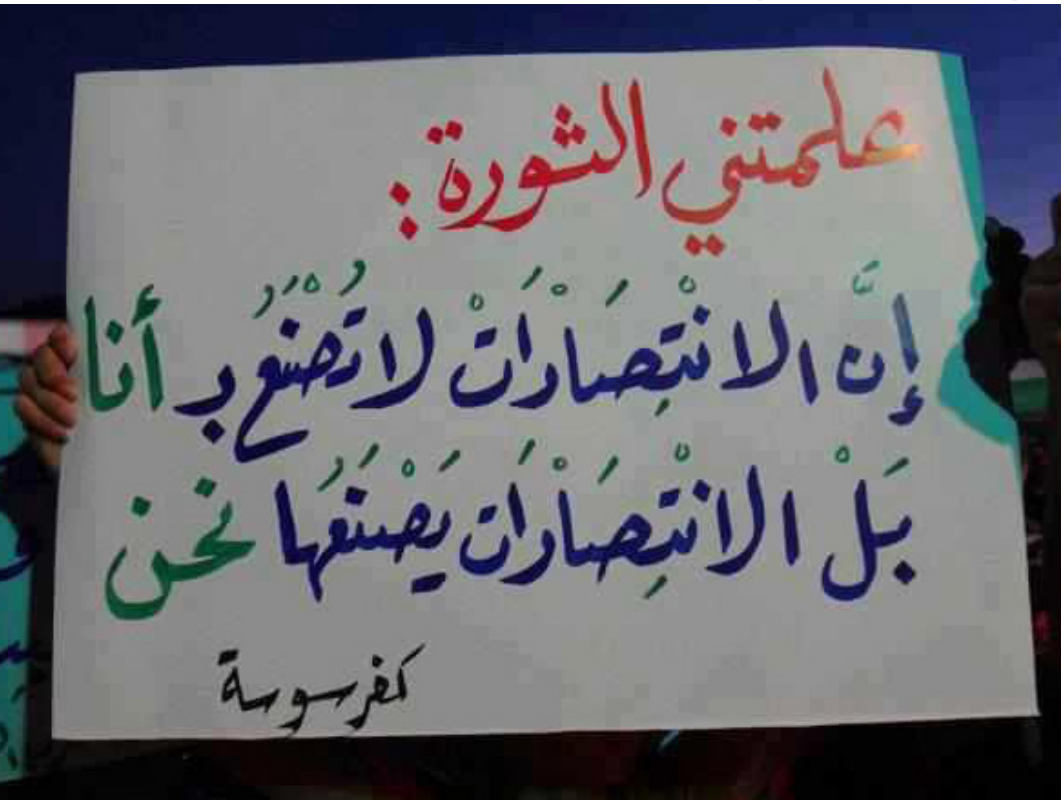

سوريا مقارنة بالمساحة التي يسيطر عليها النظام.

وبات الحسمُ، وانتصار الثورة السورية بالكفاح المسلح واضحاً والنظام زائل لا محالة بعد أن فشل، لهذا الحد في مواجهة مشكلة أمنية خطيرة تكاد تودي البلاد إلى مهاوي التقسيم المذهبي "بحسب مزاعمه" زائل ليس لأنه ديكتاتوري وقمعي وفاسد فحسب، وإنما أيضاً لأنه فاشل على المستوى الأمني وعلى مستوى الحفاظ على وحدة الدولة التي طالما ادعى أن المؤامرة تستهدفها. فاشل حتى في الإستراتيجية التي وضعها والمهمة التي يقول أنه يقوم بها.

زوال النظام حتمي أما توقيت الانتصار في هذه المعركة أو تلك فحتميته ضربٌ من التنجيم والاستعانة بالفلك لتفسير الواقع، وكم ذكر التاريخ معارك تنتهي بهفوة أو خطأ أو دعم من هنا وهنا، وانتصار الثورة المسلحة التي حسمته قبل بضعة أسطر، وخاصةً معركة حلب، يبقى في عهدة القدر وهنا مكمن الخطورة، لا سيما أنها حربٌ بين الثوار وروسيا وإيران وحزب الله والنظام.. وسواء طال الأمد أو قصر فخيار التسليح هو الذي انتصر على السلمية، وسينتصر على نظام أتى على الدبابات ويبدو أنه لن يزول إلا بها..

إلا أنه ينبغي الوقوف طويلاً عند معنى الانتصار وثمنه، فالثورة نوعان: إما مدنية تشترك فيها كل فئات الشعب باحتجاجات ورفض للحاكم المستبد، وتفضي بالنهاية إلى سقوط الحاكم المستبد، واستبداله بحكم يتوافق عليه الشعب، بعد تقديم رؤية مقبولة من نخبته المثقفة ودستور يتعايش فيه الجميع. أو ثورة عسكرية ينقلب فيها تنظيم عسكري على الحاكم ويؤسس لنظام بإدارة العسكر، بما يؤسس إلى إعادة إنتاج الديكتاتورية من جديد، فمن قام بالتغيير عن طريق الانقلاب العسكري سيفكر أولاً بتحصين نفسه من انقلاب مضاد، وسيعتمد على من يثق بهم من العسكر بتنظيم المجتمع والدولة، وبالتالي إعادة تنظيم المجتمع بما يتعاكس مع المفهوم المدني الديمقراطي، أجبر السوريون على النوع الثاني، كما سيجبرون على دفع الثمن.. وأصحاب خيار التسلح يعالجون مشاكل الوطن بحلول سابقة قد تنجح في إسقاط النظام لكن نتائجها الأخرى كارثية على المجتمع وعلى بناء الدولة الديمقراطية التي ينشدها السوريون الأحرار.

ولنا أن نستعرض سلبيات التسليح وعسكرة الثورة، هي خسائر قد تكون بسيطة بالمقارنة مع بقاء النظام وتغوله على الشارع السوري ثانية إلا أنها فادحة بالمقارنة مع ما كان مؤملاً من هذه الثورة لإسقاط الدكتاتور سلميا:

* قد يستمر العمل المسلح يطول ويطول، ويتمدد أفقياً، الأمر الذي يؤدي عادة إلى انهيار اقتصادي مريع في كل المناحي، ويحوّل الدولة ومؤسساتها وبناها الاجتماعية إلى نموذج كسيح وغير قادر على النهوض، بعد سقوط النظام الديكتاتوري. فهذا النظام، يعتمد في معركته على كل خيرات الدولة وموازنتها، وبالتالي فهو يتغذى عملياً على كل ما يُمكن أن يُؤخذ من الدولة والأرض، بما فيها صناديق الأجيال القادمة، وبالتالي فإن مفاعيله الحقيقية، هي من ذات الدولة المتآكلة حتماً، والتي ستكون قاعاً صفصفاً بعد اندحاره. والتقديرات الحالية لخسائر الصراع في سورية اليوم بلغت زهاء 25 مليار دولار. نصف مساكن حمص مُدمَّرة. تسريحات متتالية من القطاع العام. نصف مليون لاجئ سوري داخل دول الجوار، ومليون لاجئ في هجرة داخلية من محافظات إلى أخرى. مئات الآلاف من المحال التجارية تضررت جزئياً أو كلياً، شبكات الصرف الصحي والكهرباء وأبراج الاتصال، وخطوط المواصلات وأنابيب النفط والغاز، كلها تضررت بشكل كبير. هذه الأمور تجعل من حكومة الثورة لاحقاً حكومة عاجزة اقتصادياً، ومرتهنة للمانحين عندما تعقد المؤتمرات في باريس واحداً واثنين وثلاثة. وعندما يحدث ذلك، تصبح الإملاءات السياسية على حكومة الثورة أسهل من أي وقت آخر.

* وبدلاً من أن تكسب الثورة السورية بسلميتها وشعاراتها الوطنية، جاءت العسكرة والتطييف لتضيّع فرصة تاريخية لقيام دولة ديمقراطية تمثيلية، لقد أدّت الهجمات المُدمّرة على المنشآت الحيوية والمراكز الأمنية ونقاط الجيش وثكناته وأرتال مبيته، ووجود الجيش الحرّ كفصيل مسلح على الأرض السورية وخارجها تضمّ المنشقين والمتطوعين دون تنظيم واضح فرضت استحالته حالة الأمر الواقع إلى اختلاط عملياته بعمليات إرهابية لجماعات تكفيرية وأعمال إجرامية لعصابات مجرمة ليس لها علاقة بالهدف السياسي الحقيقي للثورة أو للمعارضة.

* تحولت قيادة الثورة من أيدي القائمين على فعاليات شعبية سلمية في أحياء المدن والأرياف، إلى أيدي القائمين على الجناح المسلح وتوجيه عملياته العسكرية، وتم استحضار لغة دينية متعالية في خطاب الثورة على أنها لحماية السنة من هجمة صفوية عمادها النظام وإيران وحزب الله، ليتصاعد الخطاب الديني إلى ذروة التفرد بالحقيقة المطلقة التي تبيح كل فعل بما في ذلك الكذب حتى باسم السماء. وكتب يزيد صايغ إن "عسكرة جماعة الإخوان المسلمين تجعل علاقتها مع شركائها غير المسلحين في المجلس الوطني السوري، ومع بقية أطياف المعارضة، موضعَ شكّ. أولاً، لأن جماعة الإخوان تتصرّف من طرف واحد، ما يبدو أنه يؤكد مزاعم المنشقين عن المجلس الوطني السوري.. ويمثل تشكيل ألوية مستقلة تابعة لجماعة الإخوان عقبةً إضافيّةً في طريق بناء الجيش السوري الحر كجناح عسكري موحّد للمعارضة".

* انتقال الثورة من الخيار السلمي إلى الخيار المسلح فتح الباب لجميع القوى والدول وأجهزة الاستخبارات للعمل على الأرض السورية لتحقيق أجندات مضادّة لأهداف السوريين. وهذه الأجندات متداخلة ومتناقضة في أهدافها، إلى درجة أنها تجعل مصير الكيان السوري محفوفاً بمخاطر جمّة وفي ظل السلاح، ستتحوّل سوريا إلى مكان لتحقيق أجندة الآخرين من دم الشعب السوري النبيل، الذي لن يبلغ حريتَه في هذه الحالة، حتى لو سقط النظام، لأنّ الإشكاليات التي سيفجّرها في الداخل السوري ستكون أكبر من أن تحتملها الساحة السورية. فهل يملك أنصار التسلح أجوبةً لكلّ ما سبق..

* قد يقول قائل إن الاتجاه لعسكرة الثورة، أتى لحماية المدنيين، أو أنه أتى رداً على إجرام النظام، فقد أعلن العميد حسام الدين العواك قائد عمليات الثورة السورية عن فتح باب التطوع للشباب من المدنيين للانضمام للقوات العسكرية التي تقاتل الجيش السوري النظامي أول نيسان الماضي، كما طالب بتقديم المساعدات العسكرية لتجمع الضباط الأحرار والجيش السوري الحر اللذين يعملان بقيادة المجلس العسكري الثوري الأعلى برئاسة العميد مصطفى الشيخ.

وردا على سؤال "لجريدة الأهرام" دافع العواك عن عسكرة الثورة السورية قائلا إننا نتعامل مع نظام دموي يرتكب المجازر يوميا ضد شعبه حتى أصبحت سوريا بلدا منكوبا، بل إننا عثرنا على جثث لمقاتلين في الجيش النظامي تم إطلاق الرصاص على رءوسهم من الخلف، وهو ما يعني أن الجيش قتلهم لرفض إطاعة الأوامر. وكل من يرى حجم المذابح والمجازر والدماء التي تسيل لا يستطيع أن يقول أنه لابد أن نواجه الدبابة بالوردة لأنه إذا فعل ذلك يكون قد ارتكب جريمة. "وفي هذه التصريحات شديد الخطورة، فالدعوة للتطوع وعسكرة المجتمع بالتالي، قد يؤدي إلى خلق عناصر لا تمتلك انضباط الجيش النظامي أو المنشقين عنه، وسيغدو التعامل معها عسيراً بعد سقوط النظام، على الرغم من نبل دوافعها". كما أن أعداد الضحايا والمشردين بعد اختيار التسلح قد تضاعفت ثلاث أضعاف بحسب الإحصائيات الدولية هذا السلاح الذي أتى لحماية المدنيين أصلاً.

واستشعاراً لخطورة التسلح من طيف واسع من المعارضين السوريين، ظهرت هنا وهناك أصوات لدعم الشكل المدني للثورة، مبادرات خجولة، أمام ما يجري على الأرض، ففي موازاة إطلاق ذراعها المالية تحت اسم "المنتدى السوري للأعمال" الذي يضم رجال أعمال سوريين تكفلوا بدعم الثورة، يعمل أعضاء المنتدى بالتعاون مع مختلف أطياف الحراك الثوري على الأرض على نشاط أساسي ينطلق من هدف واحد، وهو "تصعيد الحراك السلمي لتتفرع منه حملات متعددة ومختلفة الوسائل تدعم الثورة التي لا بد لها أن تسير بمسارين، سلمي وردعي، وذلك رداً على الجرائم التي يرتكبها النظام على مرأى ومسمع من العالم الذي يقف صامتاً"، بحسب وصف وائل مرزا، عضو المجلس الوطني والناطق الرسمي باسم المنتدى السوري للأعمال.

يحتدم الجدل هنا وهناك، لكن لا أحد يمتلك الحقيقة، وحده التاريخ سيمكر مكره، وينتقي الأصلح لسطوره.

اعتدت على أن نتعاهد على اللقاء مع أبيات من العامية المصرية التي تنضح فرحاً وأهازيج، ومع ملف اليوم أثرت أن استودعكم مع أبيات للشاعر اللبناني "عبده وازن" موغلاً فيها في تداعيات الحرب.. عن الأخيرين الذين لم يعودوا، مع أمل بأن يذهل السوريون العالم كعادتهم دائماً، ويزيلوا كل شائبة تشوب سوريا المستقبل، ويستفيدوا من مأساة لبنان.. كي لا يعيشوها..

المخطوفون.. ليسوا أحياء.. لكنهم لم يموتوا.. إنهم يحيون.. في جهة من الليل.. في عيون أمهاتهم.. اللواتي يحدّقن في السماء.. كل ليلة.. إنهم الخطّ الأخير.. للحرب التي عبرت.. بقتلاها.. وأسمالها.. بالصرخات التي ما.. برحت ترتفع.. كان عليهم ألا يعودوا.. لئلا تدخل.. الحرب كتاب.. الذاكرة.. لئلا يلتئم الجرح.. السري للأرض.. إنهم الأخيرون الذين لم يعودوا.. يتركون زهرة غيابهم.. على حافة النافذة.. لا أحد يقول إنهم ماتوا.. في الحفر.. أو وراء القضبان.. في الغرف العفنة.. أمهاتهم.. يضئن شمعة كل مساء.. بأصابعهن اليابسة.. مثلما فعلت.. أمّ البدّار في قصيدة كفافيس.. إنهم المخطوفون..

الحرب السورية

■ خالد كنفاني

لأول مرة منذ بداية الثورة في سوريا ينطق بان كي مون الأمين العام للأمم المتحدة بجملة مفيدة: "الحرب في سوريا تجري بالوكالة". ورغم أننا يمكن أن نعرف مستوى ذكائه من خلال المدة التي استغرقها للتوصل إلى مثل هذا الاستنتاج، فأن تصل أخيراً خير من أن لا تصل أبداً.

قلنا في أكثر من مقالة سابقة (حتى مللنا التكرار) أن جميع الأطراف في المجتمع الدولي والعربي لا تسعى إلى حل بسيط وسريع وحاسم في سوريا، ومن هنا برز العدد المهول من المبادرات والمؤتمرات والمنتديات والاجتماعات والمداولات والتجمعات دون أية نتيجة على الأرض، بل على العكس، جرى تصعيد الأمر في سوريا بشكل ملفت للنظر ودخلت كل دول الدنيا على خط الثورة في سوريا حتى بدأنا نشعر بأن هناك من يسحب بساط الثورة من السوريين أنفسهم.

ما أشبه اليوم بالبارحة. منذ اليوم الذي غضب فيه وزير الخارجية السعودي (وهو أول وآخر يوم يغضب فيه) وأعلن نية المملكة العتيدة تسليح المعارضة في سوريا حتى رأينا مئات الفصائل المسلحة التي يحمل كل منها اسماً ثورياً ذا دلالة ومرجعية واضحة لا تحتمل اللبس ولا التأويل. كما تكاثر عدد المظاهرات التي تحمل لافتات "الله أكبر" و"قائدنا إلى الأبد سيدنا محمد" و"الدم السني واحد" وهو ما يحيلنا إلى التجربة التاريخية المخجلة للسعودية خاصة والخليج عامة في أفغانستان حين جرت الدعوات للجهاد وتحرير الأفغان من "الكفار" الشيوعيين (رغم أن فلسطين كانت أقرب بكثير). وهكذا جرى تصدير آلاف الشباب والمراهقين المتحمسين والذي تم تزويدهم بمفاتيح الجنة وصور الحور العين.

كانت الدعوات "لنصرة المسلمين وأهل السنة" في سوريا تجري ولا تزال في كل مساجد السعودية والكويت بشكل غير مسبوق، ورغم أن خطباء السعودية ممنوعون من الدعاء على أمريكا أو الصهيونية فإنهم وجدوا في الدعاء على طاغية الشام ضالتهم التي يمكنهم أن يفرغوا فيها جام غضبهم وكبتهم، مثلما وجد فيها السياسة الخليجيون عامل تفريغ شعبي بدلاً من تفريخ المزيد من المتعصبين على أراضيهم.

أما آخر حلقات مسلسل "أفغنة" سوريا فكانت حملات التبرع المهولة التي قام بها السعوديون دون توضيح مصير هذه الأموال علماً أن هذه الأموال في كل الأحوال تقل بكثير عن التقديرات الرسمية حول الحاجة الفعلية للسوريين داخل الوطن. بدلاً من أن تقوم السعودية بالمساهمة في الحل السوري فإنها تسعى اليوم إلى تكريس حالة اللجوء للسوريين عبر الإعلان أن جزءاً من الأموال المجموعة سيذهب إليهم (وهو ما لا تزال تنكره الكثير من هيئات الإغاثة والمساعدة في بلدان اللجوء السوري لبنان والأردن وتركيا والعراق) وكذلك في تكريس حالة التسليح للمعارضين والمجاهدين في الداخل دون حسم دولي حقيقي وهو ما سيساهم في تفاقم العنف من كل الأطراف سواء قبل سقوط النظام أم بعده.

قد لا يعجب هذا الكلام كثيرين داخل أروقة المعارضة "السياحية" في الخارج أو المقاتلين على الأرض، ولكننا وبمقارنة بسيطة مع النموذج اليمني نرى أن الخليج قطع كل الخيوط المطلوبة للوصول بالفعل إلى حل سلمي وسياسي في سوريا في حين أنه بقي للحظة الأخيرة على تواصل مع جميع الأطراف في اليمن رغم عدد المرات التي نكث فيها الرئيس اليمني علي عبد الله صالح وعوده والتزاماته، ورغم تعرضه لمحاولة اغتيال حيث تم علاجه في السعودية نفسها و"إعادة" إنتاجه من جديد ليعود من جديد لنقض اتفاقية نقل السلطة بل وقيام قواته بقصف بعض المباني القريبة من مقرات إقامة مبعوثي الخليج لحضور مراسم التوقيع.

ليس في كل الكلام السابق أي شك أو تردد في أن النظام الديكتاتوري هو المسؤول الأول والأخير عما آلت إليه الأمور في سوريا، كما أننا لا نشك أبداً في أن النظام اعتمد الدموية التي لم يعرف غيرها عبر عقود حلاً مع هذا الشعب معتقداً أن ذلك سيكون كفيلاً بإسكات الناس والعودة إلى الحياة الطبيعية التي اصطنعها لهم. لم يفهم النظام ولم يرد أن يفهم ولا أن يسمع لأحد سوى لصوته، وكانت النتيجة ثورة شعبية رافضة للفساد والطغيان والمهانة.

غير أنه لما طال أمد الثورة وكان العشرات يسقطون كل يوم أمام العالم الذي كان ولا يزال يدعي الدفاع عن حقوق الإنسان، بدا واضحاً أن اللاعبين في سوريا لم يعودوا فقط أهلها المتظاهرين في شوارعها والحاملين لأرواحهم على أكتافهم، بل دخل على الخط الكثيرون والكثيرون ممن لم يكن لديهم عمل (المعارضة في الخارج) أو الطارئين على الثورة والسياسة والمعارضة (جعارة وطلاس وصقر وحبش والرفاعي نماذج) وكذلك القوى الكبرى والصغرى في العالم التي يبدو أنها قررت التوقف في سوريا بعد أن فرطت عقد الحكام العرب الآخرين عبر مطالبتهم "بالرحيل الآن" أو اتخاذ قرار الهجوم عليهم ونزعهم بالقوة خلال أيام. وصل الربيع إلى سوريا ولكن هناك من قرر أن السوريين لن يقطفوا ثمار ربيعهم بأيديهم.

لم تعد للتظاهرات أو أيام الجمع أية قيمة أو معنى بعدما دخل العنف دائرة مغلقة نخشى من البقاء فيها أمداً طويلاً. الثائرون اليوم هم حملة السلاح فقط، أما الباقون فقد انزووا جانباً أو هربوا من الوطن. فقدت الكلمات كل المعاني بعدما أصبح التحذير من المجازر أمراً طبيعياً مثلما بات وقوع هذه المجازر أمراً طبيعياً أيضاً. تجري الإعدامات الميدانية من قبل كل الأطراف في سوريا اليوم ثم تخرج التصريحات من كل الأطراف أيضاً لتدين وتنكر وترفض وتشجب. وما الفارق؟ تذهب أرواح الناس وحياتهم بأمر من حاكم ميداني يعتبر نفسه إما منفذاً لشرع إلهي أو لشرع ديكتاتوري، ولا نعتبر تصريحات البعض بأن الأحكام تتم بحضور رجل دين وبعض الشهود، مثلما لا يمكن اعتبار الأحكام القضائية الميدانية الجائرة التي يعتبرها النظام شرعية وموثقة.

صوتت 133 دولة لصالح قرار سعودي يقضي بتنحي الأسد، وبعد؟ يخرج بان كي مون لينتقد الحرب السورية بالوكالة، وبينما يؤكد مندوب فرنسا أنه لن يتم التجديد لبعثة المراقبين في سوريا يخرج الاتحاد الأوروبي ببيان يطالب فيه بتعيين بديل لكوفي عنان المستقيل "فوراً". التناقض هو سمة التعامل مع سوريا وكأن الزمان وقف هنا وحارت الدول والحكومات أمام هذا النظام "المقاوم والممانع".

على الطرف الآخر يعيش المعارضون أزهى عصورهم وأبهاها. فالترف لديهم تجاوز مسألة الفنادق والمقابلات والندوات وحملات التبرع ليبدأ عصر الحكومات الانتقالية وحكومات المنفى وحكومات الظل والشمس واليمين واليسار. لم نفهم حتى الآن قيام نوفل الدواليبي بتشكيل حكومة منفى كل أعضائها سوريون حتى نفاجئ بالمعارض الكبير الأستاذ هيثم المالح يعلن عن حكومة انتقالية يرأسها هو! لماذا يستعجل المعارضون قطف ثمار هذه الثورة قبل نضوجها؟ ولماذا لا يريدون أن يفهموا أن الأمر سياسة وليس إنسانية ولا عدالة؟ يجني علينا المعارضون اليوم مثلما جنى علينا كل المجتمع الدولي بترك الأمور في سوريا تنزلق إلى مهاوي خطيرة دمرت كل شيء وباتت إعادة إعمار البشر والحجر مهمة صعبة وطويلة الأمد ولا أحد يعرف تكلفتها من دمائنا وأرواحنا وأطفالنا.

"نموت ويحيا الوطن" كلمات لطالما تغنى بها شعراء الاستقلال في عصر ثورات التحرير من الاستعمار، ولكننا نموت اليوم مع خشية أن يموت الوطن. مات مليون عراقي (ولا يزالون) ولكن النتيجة لا تزال وطناً مقسماً طائفياً هشاً وخطيراً. ونخشى اليوم أن يموت السوريون ليصبح الوطن عشرة أوطان بعدما سيتأكد خطأ تسليح الثورة وإنشاء كانتونات عسكرية متفرقة تنشئ مستعمرات خاصة بها تنفذ شرعها وقانونها الخاص بها بمعزل عن أي مرجعية وطنية حقيقية. نحن نخشى أن يختلف مفهوم الوطن من الأساس، وخشيتنا نابعة من التسميات التي ذكرناها عن فصائل الجيش الحر أو غيره والتي لا يحمل أي منها ولو اسماً وطنياً واحداً.

من حقنا أن نخاف على وطننا وعلى ثورتنا، ومن لا يريد تقبل النقد عليه أن لا يعلن أنه يقود ثورة ضد طاغية. فالتغلب على الطاغية ليس القضاء على رجل واحد أو أعوانه فقط، فالطغيان معشش في رؤوسنا وتربيتنا ونحن نمارسه على أطفالنا ونسائنا وتلاميذنا وموظفينا منذ قرون طويلة، ولن تكون مهمة الديمقراطية مفروشة بالورود، بل إن فيها من الأشواك الشيء الكثير، وعلينا أن نتحضر جيداً قبل ورود الطريق، وإلا فإننا إما سننسحب في منتصف الطريق أو أن الشوك سيدمينا ويجعل منا جماعة من المشلولين الذين سيقضون ما تبقى من حياتهم متسولين بدلاً من أن يقضوها في البناء ونشر الحرية.

آخر الكلام: يقول الشاعر أحمد مطر:

أسفي أن تخرج أجيال لا تفهم معنى الحرية
لا تملك سيفا أو قلما لا تحمل فكرا وهوية
وعلمت بموت مدرسنا في الزنزانات الفردية
فنذرت لئن أحياني الله وكانت بالعمر بقية
لأجوب الأرض بأكملها بحثا عن معنى الحرية

القانون رقم 22 للعام 2012

القاضي بإحداث محكمة تختص بالنظر في قضايا الإرهاب مقرها دمشق

■ ياسر مرزوق

بالرغم من عديد الثغرات والتحفظات، التي أتت عليها القوانين الثلاث المتعلقة بالإرهاب "قانون مكافحة الإرهاب، وتسريح العامل بالدولة في حال ارتكابه عملا إرهابيا، ومعاقبة من يقوم بفعل الخطف بالأشغال الشاقة"، إلا أنه كان من الممكن تلافيها تحت راية استقلال ونزاهة القضاء، والضمانات القانونية التي يوفرها قانون أصول المحاكمات للمتهمين لكن صدور القانون رقم 22 للعام 2012 القاضي بإحداث محكمة تختص بالنظر في قضايا الإرهاب مقرها دمشق والذي أقره مجلس الشعب في جلسته ضمن الدورة الاستثنائية الأولى، والذي تحول من مشروع قانون إلى قانون نافذ بسبب إعطائه صفة الاستعجال، وكان التعليل القانوني مفاده أن هذا القانون يأتي نتيجة صدور قانون الإرهاب رقم 19 لعام 2012 وبسبب الطبيعة الخاصة لأحكامه والأشخاص الخاضعين له وباعتباره لم ينص على تحديد الجهة القضائية المختصة للنظر في الجرائم المنصوص عليها فيه وبهدف توحيد الاجتهاد القضائي.

وإحداث هذه المحكمة يعيدنا بالذاكرة لمحكمة أمن الدولة والتي كانت مثالاً للقضاء الاستثنائي، بل هي وريثة إحدى تجاربه، التي ولدت في ظل حالة الطوارئ وإعلان الأحكام العرفية القائمة منذ العام 1963، حيث صدر في العام 1968 مرسوم بإحداث محكمة أمن الدولة لتحل مكان المحكمة العسكرية، التي كانت تتولى محاكمات مناهضي أهداف الثورة والنظام الاشتراكي حسب المرسومين رقم 4 ورقم 6، وأضيف إليها هاتين المهمتين من مهام محكمة أمن الدولة كل ما يمكن أن يحال عليها من جانب الحاكم العرفي أو نائبه تحت عنوان قضايا أمن الدولة، وفي تاريخها كثير من قضايا لا تتصل بهذا العنوان، لكن تم إدراجها تحته.

والمحكمة المذكورة تحولت طوال عقود من تاريخ سوريا إلى قوة ساحقة، وبدلاً من أن يكون القضاء مكاناً للحق والعدل، تحولت محكمة أمن الدولة إلى قوة مخيفة، ويكفي أن يحال أي شخص أمامها ليتوقع أشد الأحكام قسوة. وهذه المحكمة أصدرت أحكامها في قضايا الجماعات السياسية المعارضة ومنها جماعة الإخوان المسلمين، كما أصدرت أحكاما بحق نشطاء سياسيين وحقوقيين وغيرهم كثير.

وكانت محكمة أمن الدولة والمحاكم الاستثنائية والميدانية قد أصدرت خلال الثمانينات آلافاً من الأحكام القاسية، كثير منها كانت بالإعدام، واستهدفت خصوصاً متهمين بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين إضافة إلى تيارات معارضة أخرى.

ومن أشد المآخذ على هذه المحكمة هو تشكيلها من ثلاثة مستشارين أحدهم عسكري، دون وجود مبرر حقيقي لهذا الخلط بين السلطات، كما أعطت هذه المحكمة لقاضي التحقيق اختصاصات قاضي الإحالة، بالإضافة إلى عدم التزام المحكمة بالأصول المتبعة قانوناً.

وإذا كان المبرر لهذه المحكمة الإحاطة بالأحداث الدائرة في سوريا، فكان أولى بالمشرع تشكيلها لمدة زمنية محددة تتجدد عند الضرورة، بدل أن يدخل للجسم القضائي هذا الكيان الاستثنائي، ولم يكتفي المشرع بحرمان المتهم الصادر بحقه حكم غيابي من إعادة المحاكمة، بل إنه سعى لإحداث دائرة خاصة في محكمة النقض للنظر بالطعون المقدمة على الأحكام الصادرة عن هذه المحكمة الاستثنائية، مما جعلها تخرج عن الرقابة للغرفة الجزائية لمحكمة النقض.

هذا ولم يشر المشرع إلى مخاصمة قضاة هذه المحكمة بل ترك النص مفتوحاً، لنكون أمام حالة الأمر الواقع التي لا تجيز مخاصمة القضاة العسكريين، رغم غياب نص يعطيهم هذه الحصانة.

ونصت المادة (1) من القانون رقم 22 للعام 2012 بأن تحدث محكمة تختص بالنظر في قضايا الإرهاب مقرها دمشق ويجوز عند الضرورة إحداث أكثر من غرفة بقرار من مجلس القضاء الأعلى.

وتؤلف المحكمة، بحسب الفقرة أ من المادة (2)، من 3 قضاة كل منهم بمرتبة مستشار رئيس وعضوين أحدهما عسكري وتتم تسميتهم بمرسوم بناء على اقتراح مجلس القضاء الأعلى.

وجاء في الفقرة ب من المادة (2)، بأن قاضي التحقيق يسمى بمرسوم بناء على اقتراح مجلس القضاء الأعلى ويخول إضافة إلى صلاحياته بصلاحيات قاضي الإحالة التي تنص عليها القوانين النافذة.

وقضت الفقرة ج من المادة (2)، بأن يمثل الحق العام لدى المحكمة نيابة عامة خاصة بها يسمى رئيسها وأعضاؤها بمرسوم بناء على اقتراح مجلس القضاء الأعلى.

وتختص المحكمة المحدثة، بموجب الفقرة أ من المادة (3)، بالنظر في جرائم الإرهاب وفي الجرائم التي تحال إليها من قبل النيابة العامة الخاصة بالمحكمة.

وبحسب الفقرة ب من المادة (3)، فإن المحكمة لا تنظر بالحقوق والتعويضات المترتبة عن الأضرار الناتجة عن الجرائم في الدعاوى التي تفصل بها.

ونصت المادة (4) على أن يشمل اختصاص المحكمة جميع الأشخاص من مدنيين وعسكريين.

أما المادة (5)، فقضت بأن تخضع الأحكام الصادرة عن المحكمة للطعن أمام دائرة خاصة تشكل بمرسوم في محكمة النقض.

ولا تخضع الأحكام الغيابية الصادرة عن المحكمة، بموجب المادة (6)، لإعادة المحاكمة في حال إلقاء القبض على المحكوم عليه إلا إذا كان قد سلم نفسه.

وقضت المادة (7) انه مع الاحتفاظ بحق الدفاع لا تتقيد المحكمة بالأصول المنصوص عليها في التشريعات النافذة وذلك في جميع أدوار وإجراءات الملاحقة والمحاكمة.

وتنقل إلى المحكمة المحدثة، بحسب المادة (8)، دعاوى الإرهاب التي هي قيد النظر أمام سائر المحاكم بحالتها الراهنة.

والتخوف الأكبر هو أن تغدو هذه المحكمة باباً لانتهاك حقوق الإنسان، وانتهاك سيادة القانون... عبر قانونها الاستثنائي والذي قد يجعل منها نموذجاً جديداً للمراوغة والاستهداف السياسي تحت مسميات قانونية، أبعد ما تكون عن روح أي قانون بشري ينتمي لثقافة احترام حقوق الإنسان في القرن الواحد والعشرين.

وأن تتبع المحكمة منحىً متشدداً ضد المتهمين تبعاً للتوجيهات السياسية أو العسكرية الصادرة لها.

السويداء عروس الجنوب السوري

حكاية الشرايين التي تنبض ثورة وعرساً في الشهادة

■ فادي الداهوك

بقايا رائحة عطر فهد بلان العالقة في ثياب الشاعر سعدو الذيب "الحافظ للمودّات كحبة القمح" على رأي حنّا مينا، ورائحة شرشف قصب مطرز بنيسان، حملها طائرُ حوران أمانة مِن سكان البيوت المحروقة هناك ليمرّ من مفرق جاسم للصنمين وفوق بصرى الشام ومنزل حمزة واصلاً إلى الثعلة والقريا ولِـ عرى طارقاً أبواب أهل الجبل يروي لوليفِ روحِ السهل جرحاً نزفَ في شوارع درعا، يسأل عن الرفقة، ليعود إلى عشّه محمّلاً جواب سكان أهل الجبل "عالبال بعدك يا سهل حوران" مستحلفينه باللّه "لو رحت المسا يا طير مسّي عليهم طالت الفرقة".

ما الذي حصل في الجبل الغافي على كَتِف السهل قبل أيام؟ ما سر احتفال بصرى الشام وحمص وشامة سوريا به؟ لماذا يردد ثوارُ سوريا "يا سويدا حنّا معاكِ للموت".

يجيب أهل السويداء أنها الثورة، بعد أن كثرت الأسئلة عن أهل الثورة السورية الكبرى أصحاب المضافات المفتوحة والقهوة المرّة ورائحة الهيل، لكن قبل الخوض في التفاصيل لا بد من الحديث عن بعض الأسباب التي انزاحت عن ظهر الجبل أخيراً وكانَ لها الأثر الأكبر في دخوله فترة معينة مرحلة كرّ وفرّ مع النظام.

بداية القصة قديمة وما يفضّله أهل الجبل أن يكون التركيز على الجزء الأقرب منها زمناً إلى الثورة السورية.

فمحاولات النظام المستميتة لعزل السويداء عن الثورة المشتعلة على كامل الخريطة السورية كثيرة جداً وهيَ إن لم تكن سبباً مقنعاً لدى البعض فهي بالنسبة لآخرين خطة محكمة أثقلت الحراك الثوري في المحافظة عبر إشغاله بأمور عدة ومنذ بداية الأشهر الأولى للثورة، منها مثلاً قضيّة عناصر الجيش من أبناء المحافظة الواصلين كل يوم إلى السويداء محملين في توابيت الموت، قضية استطاع النظام أن يحرجَ بها النشطاء وقد قاموا بإلغاء أكثر من تظاهرة احتراماً لمشاعر أهل الفقيد من الجيش، تلك القضية استطاع النظام أيضاً من خلالها خلقَ طرفٍ جديد يعمل تلقائياً إلى جانبه وهذا الطرفُ ليسَ من الأمن ولا الجيش ولا الرفاق الحزبيين. هذا الطرف كان بعضَ أهالي الجنود الذين يتهمون الثورة بقتل أبنائهم واستطاع أن يزج ببعضهم نحو مواجهة الثورة والثوار في السويداء إلى جانب الشبيحة والمتعاملين معه مهدداً السلم الأهلي في المدينة وواضعاً السويداء في امتحانٍ صعبٍ جداً.

النظام الذي اشتغل على السويداء عبر أزلامه صوّر أهل المناطق الثائرة وكثيرة هيَ المناطق التي لم يكن السوريون يعرفونها قبل الثورة، صوّر أهلها للفلاح والعامل العادي في السويداء على أنهم مجموعة من الزعران وقطاع الطرق والمسلحين من خلال وسائل إعلامه التي التفتت إلى السويداء بعد إهمالها سنين طويلة وصارت وسائله تلك تبث تقاريرَ دورية عن المحافظة بشكل عام بهدف كسب جمهور يرى في مرور اسم مدينته أو صورة منها على شاشات وسائل الإعلام أمراً مدهشاً بالنسبة إليه، وما بين التقارير التي يبثها هو مستمر في محاربة الثورة إعلامياً.

لسبب مهم جداً دور كبيرٌ أيضاً في معاناة السويداء. فمع استشعار الأسد لتحرك درعا الجارُ القديم للسويداء، قام بزيارة "مفاجئة" لقرى المدينة، سوّق لها الإعلام على أنها سيرانٌ عفوي للزوج والزوجة والأولاد استطاع من خلالها اصطياد الكثيرين من أهل الجبل الطيبين، تلكَ الزيارة كانت بتاريخ الرابع عشر من آذار 2011 أي قبل انطلاق الثورة في درعا بأربعة أيام، فترة كانت قصّة الأطفال المعتقلين في درعا يتناقلها الناس سراً وبعضهم تناساها، والقول أن الأسد استشعر الثورة سببه أنه يعلم أدق التفاصيل عن قصّة الأطفال المعتقلين وعدد الأظافر المقتلعة من أصابعهم وعن المهلة التي أعطاها أهل درعا للأسد قبل أن يزلزلوا الأرض تحت أقدامه. صباحَ ذلك اليوم فوجئ أهل السويداء بهذه الحنيّة بعد نسيانهم الدائم من كل الخطط الخمسية التي تضعها الحكومة، هم حقّاً فوجئوا خصوصاً أن الأسد الأب الذي حكم سوريا ثلاثين عاماً زارَ السويداءَ مرّة واحدة في حياته كانت في اليوم الذي توفي فيه سلطان باشا الأطرش وكانت الزيارة لمدة ربع ساعة، حين حطت طائرة الهيلوكوبتر في القريا ـ مسقط رأس سلطان الأطرش ـ للعزاء ولم تتكرر تلك الزيارة مدى حياة الرئيس الذي كان يحلم أن يحكم سوريا إلى الأبد.

زيارة الأسد الولد إلى السويداء استهدفت قرىً فقيرة وأهم طبقة في المجتمع يمكن أن تشعل الثورة في السويداء، طبقة الناس المنسيين، الفقراء، الفلاحين والعمال، هؤلاء من قابلهم بشار الأسد وأكل معهم وشرب الشاي وقدّم لإحدى العائلات مبلغاً لشراء حلاّبة لبقرة تترزّق من إنتاجها عائلة كاملة.

يصف الدكتور خلدون النبواني ابن المدينة زيارة الأسد في إحدى مقالاته بأنها "أبعد من أكل الفطائر على الصاج أو تمضية يوم العطلة للعائلة الحاكمة" وهو ما ظهرَ بشكل واضح مع انطلاق الثورة والأبعد الذي قصده الدكتور خلدون النبواني كان شرخاً كبيراً وصل حد تخاصم الأخ مع أخيه، خصامٌ أضعفَ شارعَ السويداء وأوقعه في مطبات كثيرة ورافقه نشر الفرقة في صف الثورة نفسها وانقسامات وخلافات كثيرة ساهم النظام في تغذيتها بشكل غير مباشر عبر أزلامه والمدسوسين تحت مسميات ثورية.

الخامس من آذار 2011، قوات الأمن تعتقل الطالب الجامعي حسن مهنا (20 عاماً) من قرية أم الزيتون في السويداء بتهمة كتابة الشعارات على طريق السويداء ـ دمشق، ومن ثم تطلق سراحه في 24 آذار 2011 في الفترة ذاتها التي أطلق فيها سراح الأطفال في درعا، ولازدحام الأحداث في ربيع الثورة السورية والرعب المسيطر في قلوب الناس تم نسيان هذا الاسم ولم يعلم به أحد في السويداء.

السابع والعشرون من حزيران 2012، يوم الأربعاء وفي مركز المدينة الضيق، ازدحامُ للسيارات والمارة والموظفين العائدين إلى بيوتهم، فجأة أحدٌ ما يصرخ "اللّه سوريا حريّة وبس"، للسويدائيين مع هذا الشعار علاقة حميمة فهوَ أول الشعارات التي نطقوا بها ورافقهم لأشهر عدة لم يستطيعوا خلالها رفعَ سقف الشعارات والوصول إلى المطالبة بإسقاط النظام، دقائقُ قليلة التفَّ حول مطلق الشعار عشرات الشبان وللمرة الأولى لمَ يكونوا من الشبيحة، دقيقة أخرى أصبحت الأعداد ضخمة يتوسطها علم الاستقلال تحمله إحدى صبايا الثورة ولافتات كبيرة ترفعُ للمرة الأولى ثم انطلقت التظاهرة.

"المـا بيشـارك.. اللّه يهديه" الشطر الثاني من هذا الشعار يردد في باقي المحافظات هكذا "المـا بيشارك.. مافيه ناموس" لكن السويداء في حاجة لنسخة خاصة بها، فكانَ شعاراً ذكيّاً جداً جلبَ إلى التظاهرة بعض المارّة وتعاطفَ نصفِ المتفرجين وروى من شارك في تلك التظاهرة أن عدداً من الشبيحة حاول افتعال صدام مع المتظاهرين، لكن التجار من أصحاب المحلات منعوهم ومن الشعارات الجميلة أيضاً والتي كانت مكتوبة على لافتة كبيرة "بيوتُ جبل العرب منازل لكل السوريين الأحرار" في دعوة واضحة إلى الذين تركوا بيوتهم في باقي المدن السورية أن يأتوا إلى السويداء ومكانهم عيونُ أهلها.

في ذلك اليوم وفي المكان المسيطر عليه من قبل النظام فلتت الأمور من يده وخرجت أكبر تظاهرة تشهدها المدينة منذ بدء الثورة وحال لسان المشاركين فيها يقول للنظام "كيفك فيّا؟" فتلك المنطقة ـ المؤسسة العسكرية ـ تقع في قلب المدينة ومركزها التجاري وهي منطقة تعجّ بالشبيحة ودوريات الأمن لكن التظاهرة أصابتهم بالذهول والحيرة، فهيَ خرجت في مكان لا يمكن استخدام القوة فيه في ظل وجود هذا الازدحام وفي ظل عدد المتظاهرين الكبير كما لا يمكن بقاءُ الشبيحة والأمن متفرجين فكان القرار أن ينسحبوا ويخسروا هذه الجولة.

الساعة الثانية عشرة والربع بعد منتصف ليل يوم الخميس 5 تموز 2012، نصف أهل المدينة نيامٍ ونصفٌ آخر منشغل في هم الثورة، حصل ما كانَ متوقعاً في المدينة. إن أحصينا التوقعات فهيَ كثيرة لكن أبعدها كان انفجارُ سيارة، تضاربت

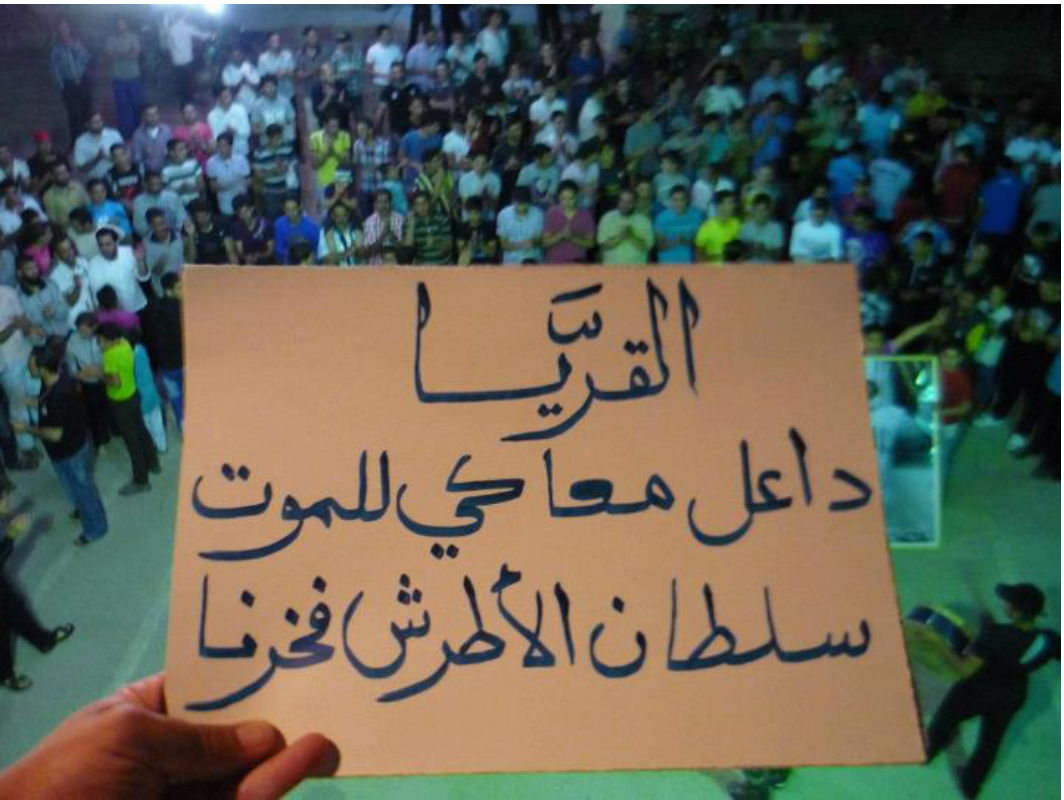

الأنباء في بداية القصّة ثم تبيّن لاحقاً أن الانفجار ناجمٌ عن عبوة ناسفة زرعت في سيارة تعود لأحد الناشطين ويدعى معين رضوان وكان برفقته ناشط آخر مطلوبٌ للأمن واسمه صفوان شقير. استمرت الإشاعات طيلة ساعات الفجر الأولى عن قنبلة أخرى مزروعة في سيارة نمرتها درعا. دائما ما تلصقُ التهمُ بدرعا فالنظام يبث الشائعات بهذه الطريقة "القبض على 200 مسلح في ظهر الجبل من درعا كانوا يزرعون عبوات متفجرة" أو "الجيش الحر في درعا يقوم بتسميم البطيخ الذي يباع في السويداء" لما درعا وما ذنبها فوق كل ما يحصل فيها من قتل وتدمير لاتهامها بعمليات ضد أهالي السويداء؟.

يقول الناشطون في السويداء أن النظام يريد أن يخصيَ السويداء والفاعل لا بد وأن يكون درعا، لأن السويداء، كما يقول ناشطوها، لو فزعت لدرعا تكون قد أغلقت عليه بوابة الجنوب السوري وحصرته في آخر زاوية من دمشق، فلذلك واظبَ بشكل ممتاز لا يمكن لأحد أن ينكره بحصر العمل الثوري في المحافظة بالتظاهرات الليلية الطيارة والعمل الإغاثي. لم يكن خيار التظاهرات الطيارة أو العمل الإغاثي من فعل الناشطين بل هو المساحة التي قدمها لهم النظام للعمل تحت سقفها وهو راض عنهم تماماً مع ضرورة حصول بعض الاعتقالات بين فترة وأخرى.

بعد التظاهرة الحاشدة يوم الأربعاء السابع والعشرين من حزيران 2012 أي قبل ثمانية أيام من حصول الانفجار تبينَ للنظام أن السويداء طوّرت طريقة عملها وخيرُ دليل له كان التظاهرة التي غافلته وخرجت بهذا الحشد، يقول أحد الناشطين "السويداء حيرتنا وحيرت النظام فرأى أن يشعلها هو عن طريق اغتيال الناشطين معين رضوان وصفوان شقير قبل أن تفلت الأمور من يده".

ما مصلحته في التفجير وفي إشعالها؟

يجيب "قاربنا على فكّ جميع العقد التي صنعها النظام في المدينة وكانت خطتنا لتظاهرة أضخم قيد التحضير ولو فعلناها سيكون النظام قد أصبحَ ضعيفا جداً في السويداء والأمور ستصبح في صالحنا ولن يهمنا بعدها شبيحته ولا أجهزته الأمنية ولا كل ثكناته العسكرية التي تطوق المدينة، لكنّه كان يستشعر الأمور بدقة فلجأ إلى اغتيال الناشطين معين رضوان وصفوان شقير. هو أصلاً كان يبحث عن صفوان ولهذا السبب اقتحم منزله في القريا واعتقل والده مقابل أن يسلم نفسه. الإعلام السوري كان موجوداً في مكان التفجير وحشد كبير من الشبيحة وأمناء الفرق الحزبية لإكمال مسرحية فاشلة".

في صباح الخامس من تموز ورداً على عملية اغتيال الناشطين رضوان وشقير خرجت تظاهرة حاشدة قمعت بشكل وحشي من قبل الأمن والشبيحة في مركز المدينة، لكن للمرة الاولى رصدت كاميرات الناشطين عمليات الاعتداء التي نفذها الشبيحة والأمن على المتظاهرين وعدد كبير منهم كان من الفتية، وانتهت التظاهرة باعتقال 23 شخصا بينهما عقيدان متقاعدان، ولاحقاً عُرفَ أن عدداً من معتقلي التظاهرة أسعفوا في اليوم التالي إلى المستشفى بشكل سري لعلاجهم بعدما تعرضوا للضرب المبرح بالهراوات والعصي الكهربائية والأدوات الحادة وتعرض بعضهم لكسور في الأيدي.

في اليوم التالي وبعد موجة غضب عارمة جراء اعتداء الأمن والشبيحة على تظاهرة يوم الخميس كان أهل السويداء على موعد مع تشييع الشهيدين معين رضوان في السويداء وصفوان شقير في بلدة القريا

فما الذي حصل؟

يصفُ أبو سلطان مشهد التشييع كما تابعه "الكل كانَ يبكي، الآلاف للمرة الاولى تجوب شوارع السويداء مطالبة بإسقاط النظام". ويتابع سرد الأحداث في السويداء فيقول "بدأ موقف العزاء في تمام الساعة التاسعة صباحاً في ساحة سمارة الأعداد كانت كبيرة وفي ازدياد. ذهبنا لجلب الشهيد من مقام عين الزمان حوالي الساعة العاشرة والربع، في تلك الفترة كانت الوفود تأتي وتعزي أهل الشهيد. الأعداد في ازدياد والحشود كانت تتوافد من كل الشوارع في المنطقة، انطلقنا نحو مقام عين الزمان ومشينا مسافة 200 متر قبل أن تصل السيارة التي تحمل النعش، كنا نساءً ورجالاً وأطفالاً وشيوخا الكل كان يهتف "اللي بيقتل شعبه خاين" غنّينا جوفية كتب كلماتها أحد الشبان للثورة "خسا من قال السويدا ذليلة" عدنا نحو ساحة سمارة وبعد أن انتهت الصلاة على الجنازة توجه كل الحضور نحو منزل أهل الشهيد، حملنا والده على الأكتاف وكان الجميع يردد "أبو الشهيد.. إرفع راسك" وهتاف "دم الشهيد رأس الأسد محلو" ثم تقدم الجميع نحو والدة الشهيد التي كانت تحمل بيديها أغصان زيتون وهتفنا لها "أم الشهيد.. كلنا ولادك" كانت من أقسى اللحظات وكثيرون هم الذين بكوا أثناء وقوفنا أمام والدة الشهيد". لم يلحظ أحدٌ أثراً للشبيحة أو لقوات الأمن والجو مريح ولا شيء يدعو للقلق مع وجود الآلاف من المتظاهرين. يتابع أبوسلطان "استغربنا اختفاء الشبيحة والأمن فهتفنا لهم" وين الشبيحة.. وين الشبيحة" ثم توجه قسم كبير منّا إلى بلدة القريا حيث كان المشيعون للشهيد صفوان شقير ينتظروننا لنشارك معهم".

في القريا، بلد السلطان، لم تكن الأجواء مشابهة لما حصل في السويداء حيث تعرض موكب التشييع إلى إطلاق نار كثيف تفرق على إثره المشيعون. أحد المشاركين في التشييع يصف ما حدث قائلاً "توجهنا من السويداء إلى القريا وفي الطريق كان الناس يلقون علينا التحية ويرفعون لنا إشارات النصر". أضاف "وصلنا إلى موقف العزاء في القريا حيث كان المشيعون في انتظارنا لبدء الصلاة على الجنازة، في هذه الأثناء كانت الفريق الإعلامي يتولى مهمة متابعة التطورات ونقلها إلى الإعلام فأخبرونا عن توجه ست سيارات زيل عسكرية محملة بالجنود والعتاد الكامل نحو القريا والسبب كان عددنا الكبير. انتهت الصلاة، وخرج موكب التشييع من موقف القريا الواقع في الجهة الغربية للبلدة، قطعنا الشارع العام ثم توجهنا نحو صرح شهداء الثورة السورية الكبرى، وصلنا إلى هناك، قمنا بالطواف بالجنازة حول تمثال سلطان الأطرش ثم امتلأ الصرح بالمشيعين، قام الشباب بعدها برفع علم الاستقلال على تمثال سلطان الأطرش، وكان معنا علمٌ آخر بطول العشرة أمتار وعلمٌ كنا قد وضعناه على نعش الشهيد صفوان شقير. أثناء خروجنا من الصرح وتوجهنا نحو المدفن كانت قوات الأمن والشبيحة قد تجمعت في الجهة المقابلة للصرح. وللمرة الاولى تنزل قوة عسكرية من الجيش إلى الشارع وكانت تقف إلى جانب الأمن والشبيحة. ظلّ موكب التشييع متقدما نحو الحشد الأمني، ثم قام بعض الناشطين وكبار السن بمفاوضة أحد الضباط للسماح لنا بالمرور دون مشاكل بعد أن حاول الشبيحة استفزازنا. في هذه الأثناء تم سحب العلم عن النعش حتى لا يتم استهدافه أو إلحاق الأذى به، كان الضابط يهدد أحد كبار السن الذين يفاوضونه ورفعَ السلاح بوجهه الأمر الذي جعل عددا من الشبان يتقدمون نحو الضابط فاتحين عن صدورهم وطالبين منه أن يطلق النار عليهم، ردّ الضابط باستهزاء وتطاول بالكلام على الرجل الذي يفاوضه فقام أحد الشبان بصفعه، قبل أن يحرك الضابط سلاحه كان قد تلقى حجرا من شاب آخر فأمر بإطلاق النار. كان إطلاق النار يحصل بشكل جنوني، كنت أشعر بالرصاص يمر فوق رأسي ومن جانب أذني. إطلاق النار استمر لمدة نصف ساعة بشكل كثيف والإصابات اقتصرت على حالات اختناق بعد رمي قوات حفظ النظام قنابل الغاز المسيل للدموع علينا. استطعنا تهريب النعش تحت وابل من الرصاص وتم دفن الشهيد كما يليق به".

نصرة للسويداء والقريا خرجت في درعا وتحديداً في حي الكاشف، تظاهرة تهتف "من السويدا هلّت البشاير". تبعتها تظاهرة في بصرى الشام هتفت "يا سويدا حنا معاكي للموت"، وفي وقت لاحق من مساء يوم الجمعة بعد انتهاء التشييع نفذ أهالي قرية مردك في السويداء اعتصاما طالبوا فيه بالمعتقلين وكذلك أصدرت تنسيقية حي الخالدية في حمص بيانا جاء فيه:

"حاول النظام الاستبدادي جعل المدن السورية جزرا معزولة عن بعضها عبر تخويف المجتمع السوري من بعضه، لكنه فشل في ذلك لأن الشعب السوري عريق بمكوناته كافة ولعل خير مثال على ذلك محافظة السويداء التي حاول النظام ومن بداية الثورة أن يعزلها عن النسيج السوري ولكنها أبت إلا أن تكون في قلب الثورة. فهي من اللحظات الأولى انخرطت في الثورة وقدمت نموذجا للحمة الشعب السوري إلا أن الإعلام أغفل حراكها المميز ولا سيما في مجال الإغاثة فقد وصلت جهودها إلى حمص وريف دمشق وحماة ودرعا وغيرها من المدن السورية المنكوبة ولكن ما زلنا ننتظر الكثير من هذه المحافظة وفقا لتاريخها المشرف واحد واحد واحد الشعب السوري واحد والتحية لأحرار السويداء".

في السويداء، يقول أهل الجبل البعيد أن الشرايين تنبضُ ثورة والرصاص الذي يطلقُ على أجسادِ السوريين اليوم خبروه جيداً في أول أيام حكم الوريث أمّا وجوه الشهداءِ في حمص وحماه ودير الزور وإدلب فهيَ تشبه وجوه شهداء السويداء الـ 23 الذين قتلهم النظام بعد أن اجتاح المدينة بالدبابات في العام 2000، هم الآن يطالبون باثنين وأربعين معتقلاً مضافاً إليهم النصر والحرية كما يليق بعروس الجنوب السوري.

المستقبل اللبنانية 11 / 7 / 2012

للفقر وجه واحد

■ رزق عيسى

للفقر وجه واحد

لا أدري هل هي المصادفة؟ أم أن الحياة تضعني في طرق الفقر!!!

أم أنني أبحث أينما ذهبت عن معاناة البشر، معاناتهم المادية والروحية.

احترت باسم المقالة أو بترتيب قصصها أو أفكارها، فهل أكتب عن الفقر في بلدي؟ في البلاد التي زرتها؟ في الكتب التي قرأتها؟

هل أكتب عنه كظاهرة مجتمعية؟ أم كنتيجة اقتصادية؟

هل أصف مشاهداتي العينية بتجرد؟ أم أحلل من مخزوني التراكمي من كتب ومقالات؟

هل للفقر وجه واحد؟

مذ نشأت كان في رأسي تحذيرٌ قديمٌ عن منطقة مجاورة لمكان نشأتي (النازحون)، منطقة قطنها ولا يزال العديد من سكان بلدي ممن نزحوا من بيوتهم وديارهم في الجولان المحتل، ممن لم يقدروا على شراء منازل تليق بإنسانيتهم.

كان التحذير من عائلتي، بأن تلك المنطقة من المناطق المحرم علينا كصغار أن نزورها، لِمَ؟ كان السؤال وكان الجواب دوماً غير مقنع.

تلك المنطقة مليئة بالمشاكل، مشاكل أمنية، سرقات، اعتداءات وما إلى ذلك من رعب الطفولة وغموض المكان والتجربة.

وعندما كبرت وجدت أن قاطني تلك المنطقة يعانون من فقر شديدٍ ونقصٍ في الخدمات الأساسية للحياة، مادية كانت أم إنسانية أم معنوية. ولم تنجح محاولاتي في تبرير خوف والدتي وعزوه إلى شعور الحماية الأمومي، فقد كبرت وبتّ أرى المشاكل في تلك المنطقة بعيني. بل وتسنّت لي الفرصة بأن أرى مناطق عديدة مشابهة، يحكمها بشكل أساسي ويصبغها بطابع مشترك الفقر.

عندما انتقلت إلى ريفٍ في محافظة اللاذقية، لأقطن لمدة 9 سنين، كان التعامل مع الفقر يومياً، فمن شدة وطئته، كان على أن أحسب مع عمتي التي لا تقرأ ولا تكتب، مصروفنا من الخبز اليومي، من بداية الشهر، كي يتسنى لنا معرفة الفائض من المصروف الشحيح أصلاً، والذي بدوره يتوزع على عدة قنوات منها الزيت ومنها المازوت للتدفئة، فلا يبقى منه سوى فروج واحد في الشهر يطعم 6 أشخاص وأحياناً أكثر لتبلغ حصة الواحد منا 100 غ من الدجاج أو اللحم في الشهر.

لا أزال أذكر كيف كان حذاء أي منا أنا وإخوتي وربما أعمامي الذين كانت أنفتهم وكبرياؤهم تمنعانهم من إظهار فقرنا أمام باقي عائلات القرية، ذلك الحذاء الذي قد يكون بحاجة للإصلاح بسبب كثرة التصليحات به، خلال شتاء قاس يغمر المنطقة بأمطار أو ثلوج تحتاج فيما تحتاجه إلى أكثر من حذاء جديد يدفئ قدميّ.

كان الفقر مجسداً أمامي في العديد من تفاصيل حياتنا، وكنت أذهل من براعة أهل القرية في التعامل مع فقرهم، ولم أدرك إلا مؤخراً كم أثر فيّ تعاون وتماسك ذلك المجتمع مع بعضه، كيف كان الجميع وبلا استثناء تقريباً يمدون بعضهم بإمدادات يحتاجها الجميع، من حطب للتدفئة أو مخلفات حيوانية لتسميد الأرض، إلى مشاركة بالمحاصيل، إلى مساعدة في عمل الأرض، وحتى في الأعمال المنزلية.

كيف كان جميع من في القرية ينظرون بعين الاحتقار لمن يتقاعس عن أداء الواجب لحماية هذا المجتمع الصغير من تأثيرات الفاقة المادية، لم يكن ذلك فقراً معنوياً بل كان مادياً بحتاً، ولكن الآن عندما أنظر إلى القرية، أجد أن الفقر المادي قد تراجع وزاد الفقر الروحي على حسابه، وأحزن. أحزن عندما أجد أن العديد من جيران بيت جدي، قد أصبحوا مكتفين، مكتفين مادياً، فانكفئوا معنوياً.

عند عودتي إلى دمشق، بعد غياب 9 سنوات، كانت المدينة غريبة علي، غريبة كمن لم يسكنها في حياته، فموقعي في الحياة قد تغير، فبينما كنت أنظر إلى الحياة كما الأشخاص من علو نصف متر، بت أرى الأشياء من أعلى، وقد أصبح طولي حوالي المترين، بت أرى التفاصيل التي كانت تبدو عوالم أخرى وأنا صغير.

بت أبحث عن معنىً، معنى لكل ما حولي، لم أستطع منع نفسي من المقارنة بين عوالم عشتها، أماكن زرتها، بشرٌ مروا في دربي أو مررت في دربهم.

حتى المدينة أمام نفسها تغيرت، وباتت بحاجة لمن يدلها على طريقها وسط انقلابات عديدة، انقلابات مجتمعية واقتصادية، صراعات أجيال تبدأ من الأسرة ولا تنتهي فقط عند متغيرات محلية وإقليمية ودولية غيرت معالم الأرض ومن عليها.

هالني اتساع المدينة، وضيق معرفتي بها، المني أن مدينتي هي مدينة صغيرة لكل ما فيها من معتركات للحياة اليومية ولم أكُ أدرك بأن ما تعيشه مدينتي وأسرتي وأنا مشتركٌ لحدٍ كبيرٍ مع ما يعيشه 90٪ من سكان الأرض.

في سنة 2001 أتيحت لي فرصة زيارة الهند، القارة الهندية كلها كانت أمام عيني وأنا أحلق في الطائرة، طبعاً في هذه الصورة مبالغة كبيرة فالقارة الهندية لا يمكن أن تشاهد كلها من طائرة، مهما كانت عالية، هذا ما اكتشفته لاحقاً. كانت إقامتي في العاصمة دلهي، وكانت العاصمة مقسمة إلى قسمين، نيو دلهي أو دلهي الجديدة، وأولد دلهي أو دلهي القديمة، بعدد سكان إجمالي يقدر في 2001 بحوالي 100 مليون نسمة، على بقعة جغرافية بمساحة نصف سوريا، وبتوزيع ديموغرافي جائر، ن حيث يقطن 80 مليون نسمة في أولد دلهي التي تأخذ ثلث المساحة أو ربعها، و20 مليون نسمة في نيودلهي التي تمتلك باقي المساحة.

كنت أسترق اللحظات كي أراقب السكان المحليين، في بقعة من وسط المدينة القديمة، وعندما كانت أمي مع صديقتها تبحثان عن متجر لبيع القطع الخشبية، بقعة أقل ما يقال عنها أنها زريبة حيوانات مع رائحة كريهة، كان ثلاثة أطفال يلعبون ضاحكين والفرح يلعب على وجوههم، غير آبهين بازدحام الحياة من حولهم، هل هذا فقر؟ أي فرصة لأولئك الأطفال عندما ينظرون غلى الحياة من على ارتفاع مترين بعد نحو عشر سنين أو أكثر؟ كم أتمنى لو أستطيع مقابلتهم الآن كي أرى ما رأيهم بفاقة العيش في بلد عدد سكانه تجاوز المليار.

بعد ذلك بعام واحد زرت الإمارات العربية المتحدة، ولا أزال لا أفهم عن أي اتحاد يتكلمون؟ زرت ذلك البلد "العربي" محاولاً الفوز بفرصة عمل، تنتشلني وأهلي من الضائقة المالية، وقد توفر لي ولإخوتي وأمي فرصة عيش أفضل مالياً على الأقل، ولحسن حظي لم أوفق، ولكن ما رأيته في ذلك البلد القائم حديثاً على علاقات عمل منظمة ومستوردة بالكامل من بلاد أخرى، حتى يحس المواطن بأنه غريب عن نفسه فكيف عن الآخر، "بس بتجيب سيارة، بتشتغل 5 سنين وبتدفع بدل جيش، بتشتري بيت، بترتبط وبيصير عندك عيلة وولاد" كلمات لطالما سمعتها وسمعها معظم أفراد جيلي، من أفراد جيل سبقه. كسب مادي سرع، يوفره فرق العملة وفرق سعر الصرف، يتيح لحامل الفيزا الخليجية فرصة الانتقال اقتصادياً إلى مصاف المغتربين الذين يأتون في الإجازة محملين بالهدايا، التي كانت قيمة الواحدة منها لا تتجاوز مصروف طفل في بلد خليجي ليوم واحد. ولكن هل سألنا أحدهم عن ثمن هذه الهدايا التي يدفعها هو وأسرته من روحهم؟ وهل استطاعت المادة والنقود استبدال أسرهم هنا؟ استبدال صحبة الجيران؟ استبدال الشعور العام في هذا البلد وغيره الكثير بأمان الروح؟ بطمأنينة البال؟ براحة الضمير؟

عندما زرت مصر في سنة 2007 - 2008، كان في بالي زيارة لم تكن في حسبان والدتي التي استغربت بل وأبدت تخوفها من مطلبي، فقد طلبت زيارة أحياء الصفيح، ومساكن القبور، طبعاً لم توافق، ولكنني فعلتها مع صديق لي يقطن القاهرة منذ فترة، ذهبنا في الليل إلى المقطم وبقينا ساهرين حتى بزوغ الفجر، أطلت الشمس ملقية بسحرها على تمثال أبي الهول والأهرامات الشهيرة من جهة، وملقية الحزن والألم في قلبي من جهة أخرى، فما شاهدته من أحياء الصفيح المتراكمة فوق بعضها كان شيئاً غير قابل للتصديق أولاً وغير قابل للوصف ثانياً، آلاف بل قل مئات آلاف من البشر يسكنون أرضاً صنعوا فيها بيوتاً من الصفيح، سمعت الكثير عن هذه البيوت ولكن المنظر كان مؤذياً أكثر، وما كان مؤذياً أكثر هو حالة البشر المقيمين في ذلك البلد "كل سنة وأنت طيب يا بيه، حمد لله على السلامة يا باشا" وعشرات الجمل المزروعة في رأس العديدين، هدفها الوحيد هو كسب جنيه زيادة، فإن لم تفلح، فعليك أن تفتش جيوبك في كل مرة تمر فيها قرب أحد المارة، في ذلك المساء وبعد أن ملأت عيني بصور مخزنة في الذاكرة لبشر ينامون في القبور، لعم تمكنهم من الحصول على منزل، استذكرت حادثة في زيارتي للهند نسيت أن اذكرها سابقاً.

عندما ركبت الباص المتجه إلى تاج محل، مع عدد من الأجانب ودليل سياحي، سمعت القصة التالية:

في أولد دلهي، تجد البشر نائمين على أرصفة الطرقات، ولكل منهم مكانه المحدد الذي يأتيه ليلاً أو نهاراً كما بيته، فيفترش الأرض وينام. فإن أتى ووجد أحدهم نائماً مكانه، فمن الممكن له بعرف الشارع أن يقتله ويرميه للكلاب في الشارع، لأن هذه البقعة من الرصيف هي ملك له، ولا يحق لأحد أن يقطنها سواه.

نفس القصة موجودة في مساكن القبور، فهذا القبر لي ولأسرتي، وقد نموت دفاعاً عنه، إذ لا مكان آخر لنا لنسكنه سوا هذا القبر.

في الجزائر؟، وفي زيارتي الحالية في سنة 2011، زرت مدينة البليدة كي أستقل التلفريك باتجاه جبل الشريعة، على ارتفاع 1400م وفي الطريق صعوداً وهبوطاً كانت صور بيوت الصفيح المحيطة بطريق التلفريك، تجتاحني كما عاصفة هوجاء، كل جمال المنطقة لم يعد قادراً على محو صور

باكيت حمرا قصيرة

■ يوسف أبو خضور

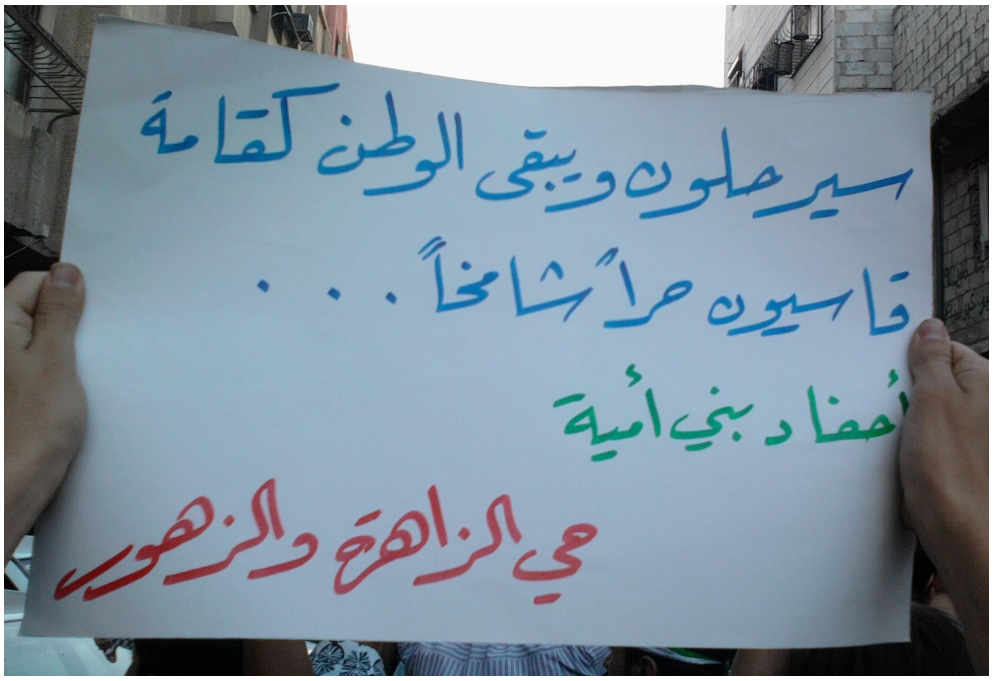

تلك البيوت، وأولئك الأطفال الذين يسكنونها وهم عائدين من مدارسهم.

فقر....

فقر بماذا؟

هل هو فقر مادي؟ حسنٌ، هذا الفقر المادي لم؟ وبلد كالهند أو مصر أو الجزائر لديه من الثروات الطبيعية وطاقة العمل البشرية واحتمالات التطور الصناعي والثقافي ما لا يتوفر لبلاد كثيرة.

لا أستثني بلدي سوريا من المقارنة، ولا بلداً كالبرازيل مثلاً، فكل هذه البلاد لديها طاقات اقتصادية مهمة جداً. لا تستثمر بشكل صحيح أو أن عائدات هذه الاستثمارات تذهب بعيداً إلى أماكن تجمع الرأسمال في البنوك المتعددة الجنسيات.

هل هو فقر روحي؟ حسنٌ، ما السبب في هذا الفقر الروحي؟ وبلد كالهند التي أخرجت أكبر مستعمر مر على الأرض دون عنف، بلد يحمل في تاريخه واحدة كم أهم ثقافات وفلسفات الحياة والسلام والمساواة، مصر التي تعرف من المدنية والحضارة ما يلزم أمم قارة كاملة أن تجمعه، أم الجزائر التي قدمت مليون شهيد كي تتخلص من استعمار جثم 140 سنة على قلوب وأرواح الناس، فخرج المستعمر وماتت الأرواح.

أم أحدثكم عن بلدي؟ عن بلد قرأت تاريخه في الكتب، وشاهدته في شوارع وحارات وأزقة مدنه؟ بلد مر عليه آلاف السنين، وآلاف الأجيال، المستعمرين والطغاة والمفكرين والأدباء، الخلفاء والأمراء، الآلهة والأنبياء. حمل سفنه وقوافله المدنية والحضارة وأرسلها في كل أصقاع الأرض.

إن كان لا بد لي من السؤال أود أن أسألكم، ما الذي تغير فينا حتى بات همنا فردياً، وبات خلاصنا فردياً، وباتت حياتنا تملكاً، بات التطلع داخلنا ليس إلى حرية الذات بل إلى عبودية المادة، ليس إلى فردانية شخصياتنا بل إلى روح القطيع المساق إلى حتفه مطأطئ الرأس، يخاف حتى من ثغاء قد يخرج من فمه فينبح عليه كلب الراعي ليسكته.

هل بتنا فارغين وبائسين لدرجة أننا نرى ما حولنا من تغير فنقول: ما لهم لا يرضون، وهل في الإمكان أحسن مما كان؟

هل بتنا جثثاً هامدة لا تقوَ حتى نفخ التراب والغبار من حولها لترى أن الحياة سبقتنا بمسافة لو ركضنا بأقصى سرعتنا فلن نلحق بها؟

هل استسلمنا لقدرنا وقبلنا أن نكون على هامش الحياة، حياتنا نحن، مستقبلنا نحن؟

هل أصبح الهواء ثقيلاً في رئتينا حتى عجزنا عن التنفس وتوقفنا عن الإحساس بجدوى الحركة في الحياة؟

هل توقف الدم عن الجريان في عروقنا واستبدلناه بالمحسوبيات والرشاوى والواسطة؟

هل أصبحت أرواحنا ضيقة مضغوطة إلى حد أن تباع وتشترى في بورصات السوق وطاولات القمار في الفنادق؟

إن لم نكن كذلك، ألا يحركنا من الداخل شعور بالحاجة للتغيير؟

ألم يحن الوقت لتغيير؟ تغيير فينا، قبل أن يكون خارجنا؟؟؟

الحياة جمعية والخلاص جمعي والهم جمعي والتغيير جمعي والنتيجة جمعية، ولنا أن نهرب من هذه الكلمات، ولكنها ستلاحقنا، كلما هربنا وهرمنا، سيبقى في قاع كل منا، تلك الروح التي لا تنام، لا تموت لا تقهر، ستظل حية شاهدة أن هنا كان بشر أداروا ظهرهم لمسؤوليتهم تجاه أنفسهم وتجاه جماعتهم، تجاه تاريخهم وتجاه أجيال خلت وأجيال ستأتي.

للفقر أوجه عديدة في الظاهر، ووجه واحد في الحقيقة، كلما ازداد فقر الروح والحياة، صار الإنسان بائساً أكثر.

هذه القصة خالية من الزمن. لقد توقف الزمن وتجمد عند تلك اللحظة التي سقط فيها "باكيت الحمرا القصيرة" من جيبه وسال شيء لزج على يدي التي وضعتها تحت رقبته ويدي الأخرى على خصره في محاولة مني لحمله، بعد أن أقنعني الشاب الواقف فوق رأسي بأن صديقه ما زال حيا، عندما رفعته بقوة وسحبته إلى صدري، تبين لي أن رأسه كان فارغا، مفتوحا من الجهة الأخرى ودماغه كان يسيل على الأرض.

سقط من بين يدي وتركته مذهولا، مرعوبا..

ما زلت أجهل كيف وجدت نفسي في بيتي ولا شيء برأسي إلا صورة باكيت الحمرا وهو يسقط من جيبه، لقد جرحت تلك الصورة ذاكرتي للأبد، لا أعرف لماذا علقت تلك اللقطة بذاكرتي، لقد نسيت كل شيء وارتبط كل شيء بباكيت الحمرا، أذكر أن الشارع كان مليئا بالأحذية، أحذية كثيرة بأشكال وأحجام مختلفة، لكنها جميعا كانت بائسة، غادرتها الأقدام بسرعة، بعد أن كانت لبستها بهدوء وإصرار على السير باتجاه درعا المدينة لمؤازرتها بعد مجزرة المسجد العمري. ما زالت أصوات الاستغاثة والبكاء المجنون في رأسي. شيء ما كان يخبرني أني تحدثت مع ذلك الشاب، كنت موقنا بأنني وعدته بأن آخذ بثأره، وأصبح هذا الوعد محور حياتي..

بعد ذلك انفصلت الوجوه عن الأصوات، والأصوات أصبحت كالصدى بعيدة، تمر بجانبي كأنها لا تعنيني، كل الأحداث لم تعد تعنيني، أصبحت كالمراقب البعيد لأحداث حياتي، لم يعد لدي القدرة على التفاعل مع الناس والأحداث.

كنت حريصا على نبتة الحقد التي تفجرت في صدري في تلك اللحظة، وأخذت أغذيها كل يوم وأنميها، كنت، حريصا ألا أسمع أو أشاهد شيئا يعكر صفو حقدي، كنت أغذيه وكان يغذيني، لذلك ابتعدت عن كل الأصدقاء، خصوصا العقلاء منهم، وأطفأت جهاز التلفاز، وصرت أراقب طفلتي الصغيرة كل يوم لساعات طويلة، لم أكن أعرف ماذا أنتظر، كانت بندقيتي جاهزة، وفي كل يوم أجلس وحيدا بعد أن ينام الجميع وأحصي الطلقات وأضعها في فمي في كل مرة قبل أن أعبئها في مكانها، كانت تلك عادتي الشهيرة أثناء خدمتي العسكرية، لم أخطئ هدفا في حياتي، كنت ألحس الطلقات قبل أن أعبئها كانت تلك عادتي التي تذكرتها فجأة بعد هذه السنين، كنت أخاف أن يخذلني حقدي، كنت بانتظار اللحظة المناسبة، اشتريت باكيت حمرا قصيرة ووضعته في جيبي مع أنني لا أدخنه، كان رفيقي الدائم..

لم يعرف قلبي ولا حتى عقلي التردد، لكنني كنت بانتظار أشارة ما، وفي تلك الجمعة جاءتني تلك الإشارة عندما أيقظتني ابنتي الصغيرة وهي تحمل باكيت الحمرا، شعرت أنها تخبرني أن الوقت قد حان، شيء ما أخبرني أن هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها..

كنت متمددا هناك بوضيعة الرامي منبطحا التي أتقنها كثيرا، كنا خمسة شباب في هذه النقطة، وكنا في منطقة تكشف تجمع رجالات الأمن والشبيحة بوضوح، لا أستطيع تمييز الوجوه من هنا لكنني أستطيع تمييز حركات الجسد التي أستطيع القول أنني خبير بها، لا بد أن هناك شيئا ما في هيئتي أو في عيوني جعل رفاقي الذين أراهم للمرة الأولى اليوم، يقدمونني عليهم ويعاملوني كزعيم، وزعتهم في المنطقة بخبرة واتخذت مكاني، ووضعت باكيت الحمرا أمامي وبدأت أبحث عن القاتل، بندقيتي في وضعية الرمي دراكا، كيف سأميزه، كنت واثقا أني سأعرفه فور رؤيتي له، لكنني لم أشاهده في حياتي لقد كان إطلاق النار عشوائيا، كان المشهد يومئذ أشبه بقيامة كبرى، وأنا خرجت من بيتي الذي وقعت المجزرة أمامه فجأة، وفي لحظة كنت في وسط المجزرة والجثث والجرحى والصيحات الضائعة في الفراغ وصوت الرصاص الذي كان قريبا جدا.

كنت أراهم كل يوم في طريقي للعمل وأتمعن في وجوههم وضحكاتهم وعيونهم التي لا ترحم أحدا، لهم عيون تشبه بنادقهم، يستطيع احدهم جرحك بنظراته، ثم يجهز عليك بطلقة، وكأن شيئا لم يحدث، كنت أرى في تجمعهم قريبا من بيتي انتهاكا لحياتي وحياة عائلتي، كنت ارتجف لحظة خروجي من المنزل برفقة زوجتي، كانت المسافة التي يجب أن اقطعها من أمامهم لا تقاس بالزمن أو بالخطوات، إنما بدقات القلب، وعدد الوجوه التي أتخيل إنني أهشمها وعدد العيون التي أتخيل إنني اقتلعا من محاجرها، لقمت البندقية وأخذت أبحث بينهم..

أنه ذلك الضابط الذي يعطي التعليمات ويوزع جنوده ويطبطب على ظهورهم..

إنه ذلك الجندي الذي يمزح مع رفاقه بخبث، في هذه اللحظة، لحظة الاستعداد للقتل، إنهم ليسوا هناك لتفريق المظاهرة، إنهم هناك كي يقتلوا، كان هذا واضحا من حركات أجسادهم..

وصلت سيارة مسرعة ونزل منها أحدهم، شعرت بغروره يلامس وجهي، شعرت في حركاته بعدد الذين قتلهم، كنت أتخيل ضحاياه، عانق ثلاثة من الموجودين، كان واضحا أن لديه اعتبار ما..

ذلك الشاب الجالس وحيدا والذي حياه الجميع وتحدث بعضهم إليه، كان واضحا انه مميز بينهم، ذلك الجندي الذي يتفحص أسلحة أصدقائه ويتأكد منها..

لقد حفظتهم جميعا، لن يغيبوا عن عيني، وبعد ساعة من الآن سيكونون في الجحيم..

خلال ساعة جلست أراقبهم وأراقب المكان المحيط بهم، كان من المهم لي أن لا أضيع أحدهم، لقد شعرت أنني بينهم وحفظت حركاتهم، شعرت أن نجاة أحدهم ستقتلني..

لقد أردتهم جميعا..

لا أعرف كيف انتهت اللحظة وكيف انسحبنا..

عندما كنت أداعب ابنتي في البيت، شعرت أنني ما زلت في تلك النقطة، في وضعية الانبطاح والتأهب للثأر، شعرت إنني علقت هناك للأبد.. لقد علقت هناك للأبد مع باكيت الحمرا القصيرة.

الجيش الحر..
أمانة.. لا تخونو هالامانة..!

■ روني فريدوم

تعبان.. تعبان كتير.. من حالة بلد.. من وضع بلد.. عم نطلبلو حريّة..

تعبان لانو عم حس كل شي انشغل من قبل لوصلنا لهون عم يروح بهالوقت..

لح نخلص بالنهاية ولح يسقوط النظام.. بس لح نكون انهرنا ولح يكون الشغل اللي عنا ياه واللي بدنا نشتغلو اضعاف مضاعفة..

ببلادي في شباب عم يحملو سلاح.. شباب بعمر الورد.. عم يحملو سلاح..

بزكرونا بايام ما كنا نصدق وقت نشتري فرد الخردق.. ونعد نلعب فيه ومبسوطين انو في شي.. بيشبع غريزة الإنسان.. للميل للعنف..

ما كنا ننبسط بالفرودة صرنا ندور عالبواريد الخردق اللي بتأزي أكتر.. السادية والعنف والحب لتحسس الألم كان جوات هالعالم كلا..

عم شوف هيك بلادي هالأيام.. عم تتحول لحب سادي عنفي وعلاقة سادية بين الثائر وأرضو..

الثائر ما بينبسط الا لما يدعي عحالو.. أنو إن شا اللّه ننقصف لنرتاح.. إن شا اللّه ننضرب لنرتاح.. ليش ما عم يقصفو علينا.. يحلو عن بابا عمرو ويجو يقصفو علينا..

ما عم يرتاحو لحتى يشوفو الدم قدامن.. ساعتا بقولو هلا أهل حمص ولا أهل.. اللي اتضررو وين ما كان ما بقا يحكو علينا..

كان الكل طالع ليطلب حرية كان تفكيرو كيف بدو يخدم الثورة كيف بدو يقدم اكتر.. هلا تفكيرو.. كيف بدو يحس بالألم اللي حواليه بانو يشوف الدم.. جنبو وين ما كان عم يسبح فيه..

كيف بدو.. يعين الناس اللي عم تنقصف كيف بدو يأمنلها اكل..

عم شوف.. النظام عم يربح.. النظام زائل أكيد.. والى زوال.. وما عم يطول هلا إلا لأنو نحنا ما عنا خبرة وعم نسمحلو يلعب فينا.. ما عنا العقول اللي قدرانة تفكر وتخلينا نفكر معها..

ما بعرف لوين لح نوصل بهي الحالة.. لك صار عنا خوف كلياتنا من سقوط النظام انو لوين لح يودينا.. أكيد لح تكون نهاية احسن من الدم الحالي.. بس في حدا ضامن شي؟ ما حدا..

المشكلة هلا عند مفترق طرق كبير نحنا.. يا العالم بدا تستوعب انو الحل مانو.. باللّه محيي الجيش الحر.. ابدا مالو الحل انو.. نبقا قاعدين.. وكل العالم والحراك وقف شغلو.. كل واحد وعم يقول اللّه محيي الجي الحر والجيش الحر حرر هالمنطقة واحتل هالمنطقة..

صار عندكم قناعة انو الجيش الحر إزا بدو يشتغل شي ليفيد البلد.. لازم يتحرك بتنظيم لازم يتحرك بعقلانية يكونو في عالم مسؤولين عليه.. ويعرفو يفكرو.. يقدرو يدبرو عمليات اغتيالات.. عمليات ... عسكرية نوعية يقدرو يضربو خط كهربا اساسي عن شي فرع يعملو عمل.. يخلينا نحسو انو جيش حر..

ما ضلينا سنة ونص عم نحارب بالكلمة والحق اللي بتقتل النظام لنجي اخر شي.. ونحطها بايدين شباب هنن أرجل مني ومنك ومن الكل وحاملين رواحن عايديهم اكيد..

بس.. استبدلو الخردق.. اللي فوق برصاص حقيقي.. هالمرة.. والموضوع.. بالنسبة إلن العالم عم تحيين.. وعم تقلن اللّه محييكم واللّه يحميكم.. هنن شباب عاديين متلك متلو متل أي واحد فينا بس قررو يحملو سلاح.. طيب جربتو تحكوهم؟ تناقشوهم؟ تشوفو الخطة اللي معهم؟ ما لازم يكون في هدف واضح لاي عملية عسكرية؟ ولا بس انو تنقلب المكان لفوضى هوة شي.. كافي

.. مو هيك لح تجي الجرية.. النظام مانو فارق معو لا جندي.. ولا دبابة.. ولا.. اي شي.. ما فارق معو كل هاد عندو منن كتير ولح يبقا مبسوط بقتل هالشباب اللي عم يروحو بين الرجلين..

بس تشوف فيديوات اللي عم تقلك اللّه محيي الجيش الحر واللّه اكبر تدمير دبابة.. كم شب من هالشباب ماتو مقابيل هالدبابة لتفجرت.. عندو غيرا مليان.. مانو كتير سائل لا عنا ولا عن اللي عم يقاتل جواتا..

هالشباب اللي ما حدا عم ينبهن انو هاد الحل والرصاص الخفيف والاربي جي.. والمدري شو مانو حل..

بدي الشباب اللي قاعدين ومبسوطين بالمتعة الزاتية.. بالتعذيب النفسي.. وبالسادية اللي عم نعيشها.. انو يوقفو بس هتاف متهور للجيش الحر..

أنتو عم تخربو الجيش الحر وقت عم تحملوه شي مالو قدو ولا لح يكون قدو بيوم من الأيام..

ما بعرف شو بدي احكي اكتر من هيك.. بس عنجد.. مخنوق.. مخنوق لانو عم تخونو الجيش الحر وعم تخونو.. هالشباب اللي عم يحملو سلاح.. وعم يروحو بس عم نتشهد عليهم إزا عرفناهم او ما عرفناهم..

هلا بدكم تقلولي.. شو البديل؟ السلمية هية البديل؟ لح قلكم.. مو السلمية ومو السلاح.. الموضوع مانو موضوع انو السلاح هوة حل وانا ما معي العصاية السحرية ولا بنجّم بالقمر..

بس متل ما عم تقلي انت انو السلمية هية البديل انا فيني آجي وقلك انو السلاح هوة البديل؟ شفت انت انو السلاح اللي استخدم بكل سوريا من قبل هوة حل ناجح كان؟

الموضوع ما بيجي بهالطريقة.. الحركة الاخيرة بدمشق شلت الحراك عالاخير.. فيكم تشوفو الشباب اللي كلو التهى بالاغاثة.. وكلو التهى بالاكل والشرب وتامين.. العالم اللي نزحت والعالم اللي انهدت بيوتا.. ارتحنا نفسيا انو قال الشام صارت متل حمص.. اي وبعدين؟

اللي بدو ينظّر ينظّر واللي بدو يسمعني حكي لاني برات البلد يسمّع واللي بدو يقول شرف نزيل ورجينا.. لح قلو إزا انا لحالي نازل ورجيك ما لح يكفي:) إزا بدك تتفرج عليي ما لح يكفي يعني كون أكيد.. شو ما بدو يقول معكم حريّة.. طرح كامل الآراء.. بكل أريحية.. وحريّة.. :)

ما بعرف إزا فيني لخصها اكتر.. بانو إزا الانسان مجروح.. واكل ضرب.. وعم ينزل منو دم.. وعم يدور عالدوا.. وما لقا الدوا اللي يطيبو واللي يخليه يكون.. بخير وأحسن.. ويطيب هالجرح..

بس عندو دوا واحد ما عندو غيرو جرب يحط منو أول شي.. كان مسكن.. صار يسكنلو الموا انو عم يرد شي من الوحشية اللي عم يواجها..

بس هالدوا عم يفاقم الدم بالنهاية ما عاد عم تحس بالوجع لأنك تحت القصف وغيرو.. عم تشبع هي الرغبة بس انت عم تقدم حل دموي اكتر وعم يخلي جرحك يضل عم يدمى اكتر واكتر وانت عرفان انو ما هاد هوة الحل.. ليش لتبقى.. مكمّل باخد هالدوا ...

نحكي نقطة تانية؟ شو صار بالميدان ولا القابون مثلا؟ هدول المناطق ما كانو محررين أصلا؟ يعني شو تغير فيهم بعد فوتة الجيش الحر الا انو اعلناها منطقة محررة..

صورنا آثار الدمار الأسدي.. التتار مر من هنا؟ اي؟ وبعدين؟ شو اللي تغير بالميدان؟ الميدان اوريدي كانت محررة وكل يوم مظاهرات ومسائيات.. وكلشي موجود فيها؟ شو استفدنا جربنا نسال حالنا بس؟

كفر سوسة مالا محررة؟ القابون مالها محررة؟.. الحريّة بتفكير الأهالي بتفكير ساكنين المكان.. الحريّة مالها انو نصير منطقة منكوبة ولا انو نستلذ انو نحنا مالنا انقص من حمص بدرجة..

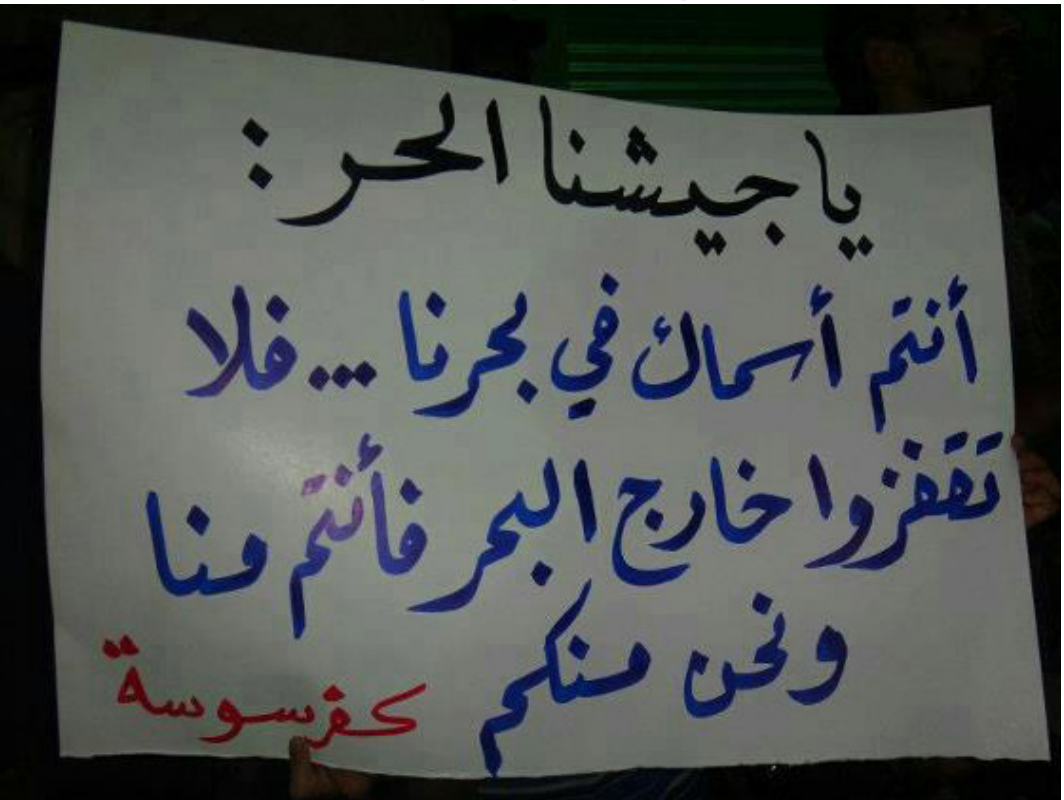

مدحلَهْ

■ جمال منصور

تبتْ يدايَ
الـ رسـمتا، بميكانيكيةٍ، شـعار
الطلائـع علـى جريـدةِ الحائطِ، في
الصفِ الخامسِ / كتبتا هراءَ البعثِ،
في دفاتـرِ المدرسـةِ / شـدتا بحزمِ
النطـاقَ العسـكري، علـى بنطـالِ
الفتـوةِ الدميمِ / دهنتـا وجهَ حافظِ
الأسدِ ذا الجبينَ المستطيلِ القميءِ،
علـى جدارِ باحةِ المدرسـةِ / صفقتا
طويلاً لخطَابهِ "التاريخي" في صالةِ
الفيحاءِ، عام ١٩٨٥، في المدرجاتِ
والـ لم تجرؤآ
أن تحطما رأسـي علـى كتفيَ،
وكل شيءٍ تطالانهِ -
لكانت روحي
لم تنفجر، كديكٍ روميٍّ، محشوٍ حتى الثمالةِ
عارٍ تحتَ السكاكينِ
وتحتَ صوتِ حافظِ الأسدِ الصديءِ
الـ يفرخُ الكوابيسَ
ورجالَ المخابراتِ
والموتْ...
(مواسمُ الحصادْ)

* * *

من شهادةِ الميلادِ
إلى شهادةِ "المرحى" في الأول الابتدائي
إلى شهادةِ الاستثمارِ
إلى شهادةِ إتمامِ معسكرِ صفِ العاشرِ
إلى شهادةِ البكالوريا
إلى شهادةِ السواقةِ
إلى شهادةِ الجامعةِ
إلى شهادةِ إتمامِ خدمةِ العلمِ
إلى شهادةِ الوفاةِ -
ندورُ
ندورُ
في هذا الجُحرِ النتنِ المحصورِ
الـ نسميهِ
بلَدْ...
(شهاداتْ)

* * *

كالـركامِ الـ يتكومُ، بعدِ زيارةٍ من قذيفةِ 155 ملم / كالرملِ الخشـنِ / كالغبارِ، الـ يسـتوطنُ تفاصيلنا المنسـيةِ الصغرى / كتفلِ القهوَةِ الكثيفَ، في أسفَلِ فناجينِ القهوةِ المأفونةِ المريرةِ
تسحقُ الروحَ
هذهِ الأيامُ،
كالمدحلةِ
تسحقها،
فلا يبقى
إلا الفتافيتُ
الفتافيتُ
الفتافيتْ...
(مدحلَهْ)

* * *

في هذي البلادِ
السـابحةِ في أثيرِ المأسـاةِ / والأنينِ المزمنِ / ومجالـسِ العزاءِ الدائمةِ / والدمـعِ المتجلـطِ، فـي الأحـداقِ / والوجوهِ المَعفـرةِ، حتَى الأبـدِ، بترابِ الفجيعةَ
وحيث الثأرُ
يلدُ الثأرَ
تلو الثأرِ
تلو الثأرْ
حيثُ لا راياتَ إلا السوادُ
حيث لاترتفعُ
إلا أكوامُ الجثث -
برغمِ المنطقِ
برغمِ الاعتيادِ السقيمِ
برغمِ الطبيعةِ،
بين الأسمالِ
وأنقاضِ البيوتِ الفقيرةِ
وشقوقِ الأسفلتِ
سيبقى
ينبتُ الأملْ..
(خذ قضمةً، من رغيفِ الفجيعَهْ)..

الأمير سعيد الجزائري
1883 – 1966 م

■ ياسر مرزوق

يحل الأمير سعيد الجزائري ضيفاً على صفحات سوريتنا والأمير من الشخصيات التي نسيها التاريخ السوري، مع أنه كان أول حاكم لسوريا بعد خروج الأتراك منها.

ولد الأمير سعيد الجزائري في دمشق عام 1883 وهو ابن الأمير علي باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائري المعروف. وتعلّم فيها بالمدرسة الريحانية التي أنشأها الشيخ "محمد المبارك" و"الشيخ عبد الجليل الدرا" وبالمدرسة السلطانية "مكتب عنبر"، ثم سافر إلى إستانبول فدخل المدرسة العليا بغلطة سراي. وحصل من هناك على إجازة مدرسة الحقوق.. عاد بعدها إلى سوريا، وأسس عام 1915 جمعية مهاجري إفريقية، وترأسها، وترأس جمعيات الخلافة بسورية ولبنان، كما ترأس لجنة الدفاع عن الخط الحديدي الحجازي. وترأس لجنة المقاطعة، ثم أسس جمعية مهاجري أفريقيا الشمالية، ثم جمعية الدفاع من إفريقيا الشمالية، فالشرق الأوسط، غادر دمشق بعد إعلان الثورة العربية سنة 1916 فزار ميناء العقبة زيارة خاطفة، عاد بعدها إلى دمشق.

حين بدأ جلاء الجيش التركي عن دمشق وضواحيها متجهاً إلى الشمال أخذ الغوغاء يلعبون دورهم وخشي العقلاء من الفوضى وانعدام الأمن قبل وصول الجيش العربي إلى دمشق، فقام الأمير سعيد وأخيه عبد القادر وأبناء عمهما، على رأس مفارز من المغاربة المستوطنين دمشق والذين يدينون بالولاء للأمير المذكور، يطوفون المدينة محافظة على أمنها وهدوءها واطمئنان سكانها. والواقع أنهما أنقذا دمشق من النهب والفوضى عند انسحاب الأتراك منها في 30 أيلول، فقد وزعا إتباعهما المغاربة في مختلف إحياء المدينة، وصار هؤلاء الأتباع يجولون على خيولهم في إحياء المدينة وخاصة أحياء اليهود والمسيحيين، وكان لهم أثر فعال في نشر الأمن والطمأنينة بين السكان.

كان آخر من انسحب من الأتراك هو وكيل الوالي الأميرالاي "بهجت بك"، وقد اجتمع قبيل انسحابه "بشكري باشا الأيوبي" وسلمه إدارة المدينة، ولكن الأيوبي وجد أن الأمير سعيد الجزائري قد تولى الإدارة في المدينة فعلاً فلم يشأ أن يتنازعه عليها. وكان الأمير سعيد قد رفع العلم العربي على بناية السراي في ساحة المرجة وأنزل العلم العثماني، وأعلن قيام حكومة مؤقتة برئاسته باسم الشريف حسين، ضمت السادة "شكري الأيوبي، شاكر الحنبلي، فارس الخوري، جميل الألشي، سعدي كحالة" وعمد إلى تثبيت ركائز حكمه، فبعد لحظات من إعلان مجلس الشورى على تسليمه منصب الرئاسة قام بتحرير البرقيات إلى كافة المدن السورية الأخرى ليزف إليها الخبر من جهة وليدفعها إلى الانطواء تحت سلطة دمشق من جهة أخرى، بالنص التالي "بناءً على انسحاب الحكومة التركية، فقد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف، طمئنوا العموم، وأعلنوا أن الحكومة باسم الحكومة العربية" وحافظ أثناء مدة رئاسته القصيرة على الأموال والأرواح وادخر أموالاً تقدر بنصف مليون ليرة حفظت وسلمت للأمير فيصل بعد قدومه إلى دمشق بثلاثة أيام وإعلانه استقلال سورية.

وكان سعيد الجزائري يدّعي أنه اتفق مع الأمير فيصل على أن يعلن استقلال سورية بمجرد خروج الأتراك من دمشق دون أن ينتظر وصول فيصل إليها. وذلك خوفاً من تدخل جيوش أخرى، في اليوم التالي الأول من تشرين الأول دخلت طلائع القوات العربية مع البريطانيين ممثلين بلورانس إلى دمشق.

وقد كان وقبل وصول الملك فيصل ودخوله دمشق في الرابع من تشرين الأول عام 1918، أن أصدر الجنرال "اللنبي" قراراً بتعيين الفريق "رضا باشا الركابي" حاكماً عسكرياً للداخل السوري، وقبل وصول القرار دخلت القوات العربية إلى دمشق وكان الأميران سعيد وعبد القادر مجتمعين مع شكري الأيوبي والشريف ناصر في السراي، فدخل عليهم آنذاك لورنس ومعه نوري السعيد. وكان لورنس له معرفة سابقة بالأمير عبد القادر ويحمل له حقداً ويتهمه بالميل إلى الأتراك وخيانة العرب. ولم يكد الأمير سعيد يلمح لورنس داخلاً حتى وقف في وجهه وأخذ يخاطبه بلهجة تنم عن التحدي حيث قال له: لقد ألفنا بالأمس أنا وأخي عبد القادر أحفاد عبد القادر

الجزائري مع شكري باشا الأيوبي سليل صلاح الدين حكومة وطنية ونادينا بالحسين ملكاً على العرب على مسمع ومرأى من الأتراك والألمان المدحورين".

غضب لورنس من هذا الكلام غضباً شديداً وأعلن على مشهد من الحاضرين قائلاً: أنه بصفته مندوباً عن الأمير فيصل يعزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الأمير سعيد الجزائري وأخوه ويعين بدلاً عنها حكومة جديدة برئاسة رضا باشا الركابي على أن ينوب عنه إلى حين حضوره شكري باشا الأيوبي، ويكون نوري السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة. المسلحة ساعياً بشتى الطرق لتهميش دور الأخوين الجزائريين، مما دفع الأخوين لمحاولة اغتياله لولا تدخل الشيخ "نوري شعلان" أحد حلفاء الأمير فيصل وإعلانه أن لورنس تحت حمايته.

حاول الأخوان إثارة القلاقل عن طريق تنظيم ثورة جماهيرية كبيرة بعد إثارة الجماهير وإقناعهم بأن الحكومة الجديدة عميلة للأجانب وأن الهدف منها إنهاء الخلافة الإسلامية، فما كان من لورنس إلا أن سارع إلى "نوري السعيد" الذي قام بنشر الفرق العسكرية في المناطق الإستراتيجية في المدينة والقبض على كل من يتظاهر ضد الحاكم العسكري "شكري باشا الأيوبي".

كما صمم لورنس على قتل عبد القادر الجزائري، وكلف نوري السعيد بذلك، وقد كلف نوري بدوره صبحي العمري. يقول صبحي العمري في ذلك ما نصه: "ففي اليوم الأول أو الثاني من دخول دمشق، وكنت مسؤولاً عن أمن المنطقة الوسطى من المدينة، ومقري قرب مقر القيادة التي كانت في فندق فيكتوريا، طلبني نوري السعيد إلى المقر المذكور وكان لورنس جالساً بقربه وقال لي: "إن الأمير عبد القادر يشتغل ضد الحكم العربي، ويعمل لحساب الفرنسيين وهو يسعى إلى الإخلال بالأمن فأريدك إن تصحب عدداً من جنود سريتك وتقتله"، فدهشت من هذا الأمر، وبعد تفكير قليل قلت له: "أفهم من أمرك ياسيدي أنك تطلب مني إحضاره، فإذا عصى الأمر وقاوم فإننا نجلبه حياً أو ميتاً". فغرق نوري في تفكير قصير وراح يتبادل

النظرات مع لورنس ثم قال: "طيب أفعل". ثم قال: "اذهب إلى مدير الشرطة واطلب منه بصورة سرية شخصاً يدلك على بيت عبد القادر". وذهبت إلى مدير الشرطة وبلّغته الأمر فأرسل إلي الشخص، وما كدت أصل إلى مقري حتى جاءني رسول يبلغني طلب نوري السعيد حضوري. دخلت عليه وجدت لورنس لا يزال عنده. قال لي: "صرفنا النظر عن الأمر"، وخرجت.

في التاسع من تشرين الثاني طلبت القيادة البريطانية إلى الحكومة المحلية تكليف الأمير سعيد وأخيه عبد القادر بالشخوص إلى مركز القيادة في المزة، فلبى الأمير سعيد الطلب، أما أخوه عبد القادر فقد قاوم الشرطة وصار يشتم رئيس الحكومة رضا الركابي، ثم أسرع إلى فرسه وانطلق بها نحو طريق الصالحية، ولما وصل إلى جسر الصالحية أطلقت عليه الشرطة النار واردته قتيلا، وينقل "يوسف الحكيم" في مذكراته روايتين لاغتيال الأمير عبد القادر، دون أن يرجح إحداهما، الأولى أنه قتل بإيعاز من البريطانيين، والثانية أن رجال الأمن لما استوقفوا الأمير عبد القادر أثناء عَدوه في المهاجرين، أطلق السلاح إرهاباً وتبادل الفريقان حينئذٍ الطلقات فأصابت إحداها منه مقتلاً.

أما الأمير سعيد فقد أودع في سجن المزة أياماً، ثم نقل إلى حيفا ووضع فيها تحت الرقابة. وفي منتصف عام 1919 أطلق سراحه وسمح له بالإقامة في بيروت. وهناك انضم إلى الفريق المعادي لحكومة دمشق العربية وأخذ ينفق الأموال في الدعاية لنفسه، وأقبل عليه الكثيرون من اللبنانيين يؤيدونه، وشرعت الصحف الميالة إلى فرنسا تكيل له الثناء وتنشر أخباره بشكل يلفت الأنظار إليه ويرفع من شأنه، وأصدر في بيروت مجلة "الوحدة الإسلامية"، والتي صادرتها السلطة الفرنسية ببيروت بعد أن صدر عنها عددان، كما صدر له كتاب يتضمن "رحلة للحجاز في سبيل تأسيس جمعية مهاجري أفريقيا الشمالية"، وله كتاب "وشاح الكتائب وزينة الجيش الغالب" والجدير بالذكر أن الأمير سعيد رغم اشتغاله بالسياسة إلا أنه مارس حياة الشاعر المتصوف، وكان معجباً بالطريقة القادرية، نسبة إلى المتصوف عبد القادر الجيلاني، متأثراً أيضاً بالشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الذي كان قد دفن في مقامه جده الأمير عبد القادر..

انتقل بعد بيروت إلى مصر، ليعود إلى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي عام 1920، وقبل إقرار النظام الجمهوري في سوريا كان الأمير سعيد أحد أبرز المرشحين للجلوس على العرش السوري المرتقب. ومع اختيار السوريين للجمهورية ابتعد الأمير عن السياسة وبقي في دمشق حتى عام 1966م ورافق جثمان جدّه عبد القادر يوم نقله من دمشق إلى الجزائر، واستقر فيها إلى أن توفي عام 1970.

سبق أن ذكرنا أن الأمير سعيد كان مولعاً بالشعر والأدب، وكان بينه وبين عديدٍ من الأدباء مراسلات نشرت بعضها الصحف اللبنانية، ففي عام 1921أرسلت إليه الأديبة "مي زيادة" رسالةً عن مزايا جده الأمير عبد القادر وقد نشرتها في حينه جريدة "البرق" البيروتية والتي كان نصها: "إلى حفيد عبد القادر، يا سمو الأمير، اسم الأمير عبد القادر الجزائري اسمٌ نتلقنه نحن أبناء سوريا أطفالاً مع الكلمات الأولى، ونلثغ في لفظه متمهلين كما تداعب شفتا الرضيع حروف الأسماء المحبوبة، فيمثل ذكره لمخيلتنا جناحاً كبيراً يخيم علينا بألوان قوس قزح. ثمّ نَشب، وتتسع المدارك منا باتساع المعرفة، فتبدو لنا فروق الجنس والعقيدة والدرجة القائمة بين البشر، وإذ يتصل بنا أن الأمير عبد القادر هو "حامي النصارى"، تتضح عواطفنا الموجهة إليه ونجله لأنه أجار جماعةً وأبعد عنها الأذى، ويصبح جناح ذكره مخيماً بألوان حارة من الشعر والخيال تلازم عادةً صور النخوة والشهامة، ثم نجتاز من الحياة أعواماً أخرى نعرف خلالها أن التاريخ الحقيقي هو غير التواريخ المقبولة وأن الأسباب المسلم بها في الثورات والقلاقل هي غير السبب الجوهري، ونعرف أن الفروق بين بني الإنسان سطحية على عمقها، وأن الأعاظم منهم يقطنون عالماً سما فوق الطوائف والأحزاب والتعصبات والدرجات "عالم الجامعة الإنسانية الشاملة"، يومذاك نقدر الأمير عبد القادر حق قدره، ونجل خلقه، ونرفعه على عرش معنوي خالد، هيئ له ليس لأنه حمى النصارى فعزز برعايته كرامة الإسلام، وما الإسلام والمسيحية سوى أخوّة رضية في حضن الرحمن، بل لأنه بطل من أبطال تلك الجامعة الإنسانية العليا، إذ ذاك يزيد نجاح ذكره انبساطاً وروعة لأنه تلون بألوان المجد والفخار، فنفعل ما تفعله الأمم لأبطالها، أي أننا نحول أسمه إلى أبسطه تجرداً من الألقاب، ويغدو في عرفنا "الجزائري الكبير".

ولا أخالك لائمي يا صاحب السمو، إن أنا صرحت بأن أول ما وقع عليه نظري من رسالتك هو ذلك الاسم العظيم الذي تلا توقيعك، ولا أراك إلا باسماً إن أنا اعترفت بأني ابتسمت له، ثم قرأت سطورك الجليلة فوجدتها، ما يُنتظر أن تكون مصداقاً لذلك المبدأ العلمي القائل إن الموتى يَحيون في ذراريهم بمميزاتهم وشمائلهم الباهرات، وظهرت لي كلمات تشجيعك آياتٍ كرام ملونة هي الأخرى بألوان قوس قزح وبألوان الشعر والخيال، وبألوان المجد والفخار جميعاً.

وكل ما يجول في نفسي من شكر يتجمع بداهةً في هذا الهتاف الواحد: فليحيا الجزائري الكبير، كبيراً بأحفاده كما هو كبيرٌ بأعماله.

قال المؤرّخ الشهير محمد أديب آل تقي الدين الحصني؛ وهو معاصر للأمير سعيد؛ في كتابه "منتخبات التواريخ لدمشق" في ترجمة الأمير محمد سعيد:

"الأمير سعيد بن الأمير علي باشا، وقد أحيا ذكر أبيه وجدّه الأمير عبد القادر بالكرم والأخلاق الحسنة وقد قلّده الأتراك وكالة الحكم المباشر لهذه البلاد بعد تركهم لها بأن يدافع أهلها عنها وتكون مستقلة تحكم نفسها بنفسها ولها الحق بأن تختار أي دولة تسعفها على نهضتها وذلك قبل دخول الجيش الإنكليزي لها، ولما دخل الأمير فيصل على رأس ذلك الجيش كما أسلفنا لك ذلك مفصلاً، أخذ الحكم المؤقت من يد الأمير سعيد وبهذه البرهة اغتالت يدٌ أثيمة أخاه الأمير عبد القادر، وأبعدته السلطة الإنكليزية إلى خارج سورية، إلى أن دخلت الجيوش الفرنسية عندئذ رجع إلى دمشق وهو خير خلَف لذلك السلف ولولا ضيق المقام لسردنا جميع الوقائع المبرورة التي جاهد بها".

قال عنه خير الدين الزركلي ؛ وهو مؤرخ وسياسي كبير معاصر للأمير سعيد ؛ في كتابه الشهير "الأعلام": "الجزائري 1300 – 1390 هـ / 1883 – 1970 م" محمد سعيد بن علي بن عبد القادر بن محيي الدين الحسني الجزائري: حفيد الأمير عبد القادر صاحب الثورة الأولى على الفرنسيين في الجزائر. ولد وعاش في دمشق وتعلم بها، وبالأستانة. وقام برحلة إلى المدينة المنورة سنة 1332هـ صنف بها نور الدين بن عبد الكريم بن عزوز التونسي "الرحلة المدينية" وأشرف صاحب الترجمة على تصنيف كتاب عن والده سمي "تاريخ الأمير علي الجزائري" وكان له موقف كريم في دمشق، يوم خرج الجيش العثماني منها وبقي فيها جمال باشا الصغير* آخر قواد ذلك الجيش فقابله الأمير سعيد وأخذ منه 500 بندقية سلح بها بعض الدمشقيين والمغاربة لحفظ الأمن. وأعلن استقلال سورية قبل دخول الجيشين العربي والبريطاني.

وألّف حكومة وطنية مؤقتة أقرّها أول داخل من الجيشين "الشريف ناصر بن علي "فعاشت يومين. وأبْعَدَه عن الحكم مندوبون آخرون عن فيصل بن الحسين قبل دخول فيصل، منهم لورنس، ونوري السعيد ثم نفاه الإنكليز إلى مصر، وعاد إلى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي 1920م فأقام إلى سنة 1966م ورافق جثمان جدّه عبد القادر يوم نقله من دمشق إلى الجزائر، واستقر إلى أن توفي بها".

* جمال باشا الصغير المذكور هنا، هو جمال باشا السرميني، والذي لقب بالصغير تمييزاً له عن سلفه، جمال باشا السفاح، والذي دخل دمشق عام 1914 وخرج منها عام 1917، ليخلفه جمال باشا الصغير.

الأمير سعيد الجزائري يخطب في الجامع الأموي الكبير في دمشق عام 1939.
الصورة من موقع تاريخ سوريا

حقوق الأقلّيات أم جمهورية المواطنين؟

■ ياسين الحاج صالح

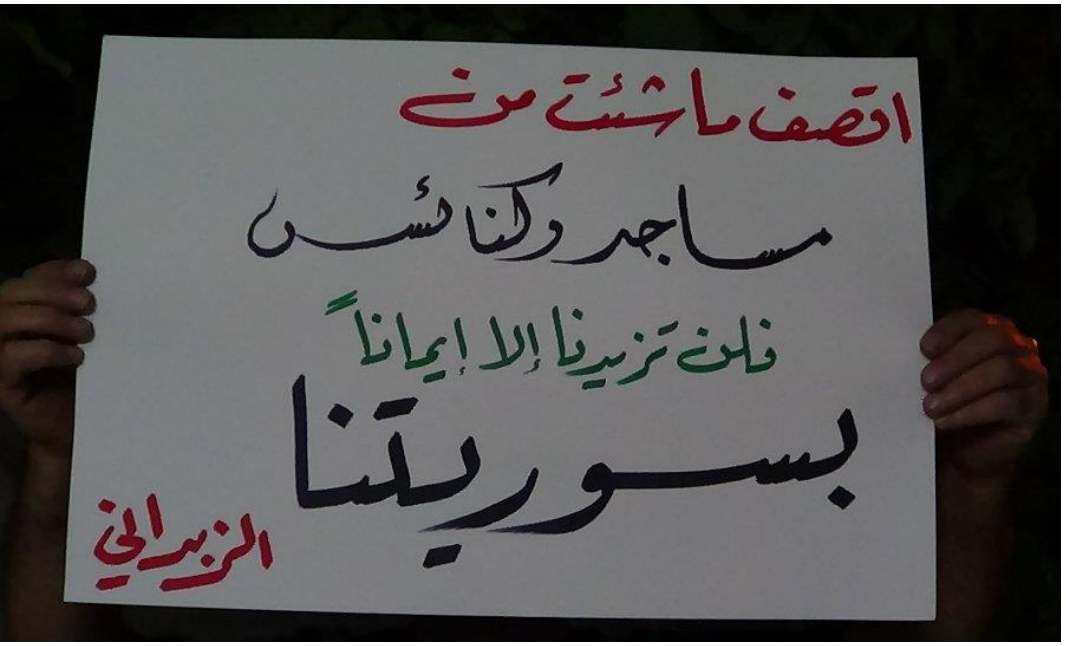

تـوارد غير مـرة فـي شـهور الثورة السـورية كلام عن "حقـوق الأقليات" في سـورية على ألسـنة مسـؤولين غربيين، فرنسـيين وأميركيـين بخاصـة. سـياق الكلام يحيل إلى حث المعارضة السـورية علـى مزيد من الاهتمام بهـذه الحقوق أو إظهار حرص أكبر علـى رعايتها، ويبطنه قلق غير موضّح من إهدار هذه الحقوق.

بيـد أن لتعبيـر حقـوق الأقليـات تاريخـا وتضمينات يوجبان حذرا أشـد في استعماله، إن لم يكن التخلي عنه تماما.

كانت "حماية الأقليات" شعاراً أساسياً من شـعارات القوى الغربية فـي مواجهة السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر وحتى سـقوطها في نهاية الحرب العالمية الثانيـة. ويضمر الشـعار أن المضطهد أو من تجب الحماية منه هو "الإسـلام"، الذي هو في آن دين المسـلمين، وهو السلطة في ديار المسـلمين. وهـو بطبيعة الحال دين متعصـب وعدواني وعنيف، ويفرض بالقوة على غير المسلمين التحول عليه.

ليس هنا مجال النقـاش عما إذا كان غير المسلمين، وغير المسلمين السنيين، مضطهديـن على نحو نسـقي في المجال العربي التركـي، أم أنهم مخفضو المكانة عموماً، مـع تفاوت (حـال المسـلمين غير السـنيين أدنى مـن حال غير المسـلمين، مسيحيين ويهوداً) يتعرضون لحملات قمعية حيـن يتمردون علـى السـلطة المركزية، علـى نحو مـا كانت تفعـل الإمبراطوريات كلهـا، وعلى نحـو كان يصيب تمردات ولاة وقبائل سـنيي المذهب؛ لا مجال للتسـاؤل أيضا عما إذا كان إفراد الإسلام (دينا وعالما ثقافيـا وسياسـيا)، يعكـس خصوصيـة حقيقيـة له، على ما كان يصور أدب غربي غزير له اسـم معلوم، وله مستهلكون من العرب المعاصرين لأسـباب مقاربة، أم هو متصل باسـتراتيجيات السيطرة السياسية والثقافية العلمية للقوى الغربية الصاعدة في القرن الثامن عشر وبعده، ثم من جديد بعد نهاية الحرب الباردة. لكننا نتشكك في كل عقيدة خصوصية، وسـنكون في أسوأ وضـع معرفـي وأخلاقي وسياسـي ممكن لنقد عقيدة الخصوصية الإيجابية الخاصة بالإسـلاميين (الإسلام متفوق على غيره)، بينما نحن نتبنى عقيدة خصوصية سلبية تجعل من الإسلام أسـوأ من غيره، عقيدة وتاريخا وسياسة.

معلـوم أن الدول الغربية الأساسـية تقاسـمت "حماية الأقليات" في المشـرق، فـكان الكاثوليـك مـن نصيب فرنسـا، والأرثوذكس من نصيب روسـيا، وخصت بريطانيـا نفسـها بحمايـة الـدروز. وقـد عمت بـركات الحماية الـدروز، المتحدرين من أرومة إسـلامية، إثر الصراع الماروني الـدرزي عـام 1860 فـي لبنـان، بعـد أن كان المقصود بالأقليات أساسـا مسيحيي المشـرق من "الإسـلام"، وما كان لأحد أن ينافس فرنسا على "حماية" الموارنة.

في عصر التنظيمات العثمانية، وهو أيضـا زمن "المسـألة الشـرقية" و"حماية الأقليات"، صار مسيحيون يحظون بحماية القنصليـات الأوروبيـة، وينالون أفضليات تجاريـة، يدرجهـا مؤرخون فـي خلفية ما تعرض له مسـيحيو دمشـق مـن مذبحة عام 1860.

وحيـن انطوت السـلطنة فـي نهاية الحـرب العالمية الأولى، لـم يكن قد بقي من السيادة الإسـلامية غير رموزها. لكن ما حل مكانها في سـورية ليس جمهورية المواطنيـن، بل انتـداب فرنسـي تمركز تفكيره كثيـرا جدا حول الديـن والمذهب في حكمه لسـورية ولبنـان. كان الانتداب الفرنسـي يرى خيـال الإسـلام والجامعة الإسـلامية وراء أيـة مقاومـة تواجهـه، ويـرد القوميـة العربيـة إلى مجـرد قناع جديد للإسـلام. وعرفت عنـه محاباة لغير المسلمين وللمسلمين غير السنيين، حتى أنه قسم سورية غير مرة إلى دويلات على أسس مذهبية (وجهوية).

ليـس هـذا المـآل غريبا علـى فكرة "حمايـة الأقليـات". ففـي "برنامجهـا الوراثي" تحمل هذه الفكرة ثلاثة أشـياء: نظـرة دينيـة إلـى مجتمعاتنـا، أو تعريفا حصريـا لها بالدين والمذهب؛ وحكم إدانة مبرم على "الإسـلام"، موروث من القرون الوسـطى، ولم يضطر الأوروبيون عموما إلى تعديله (ولا تعدل الثقافات أحكامها إلا مضطرة)؛ ثم منح القوى الغربية نفسـها دور الطبيب المعالج.

وبفظاظـة مميـزة لورثـة "سـجن الشـعوب"، تظهـر عناصـر هـذا البرنامج اليوم في تصريحات السياسـيين الروس، التـي تجمع بيـن تحذير جلـف صريح من حكم سني في سورية، وبين انتحال صفة حامـي الأقليـات، المسـيحيين والعلويين بخاصة. يوم 7/16 تحـدث وزير الخارجية الروسي لافروف عن أن بلده لا يمكن إلا أن يهتم بمصير المسيحيين في سورية، قبل أن يضيف شيئا عن انتشار منظمة القاعدة في سورية. وفي لقائه مع وفد من "المنبر الديمقراطـي" السـوري المعـارض قبـل ذلك بأسبوع، نسـب أحد أعضاء الوفد إلى الوزيـر المتعجرف قولـه: "هناك اتصالات بين المسيحيين في سـوريا وروسيا ومن مصالحنـا الحفاظ على هـذه الاتصالات". وهـذا في سـياق يتضمـن أيضـا التالي: "في حمص حرب أهلية حقيقية والبعض يسميها سـتالينغراد"؛ "أعلن بان كي مون عن النـزاع الطائفي ويتم قتل المواطنين حسـب الطائفة"؛ "يقلقنـا أخبار عن وجود تنظيـم "القاعـدة" في سـوريا ومقاتلين من ليبيا مثل كتيبـة الفاروق"، فضلاً عن اغتيـاب المجلـس الوطني السـوري. هذا السياق يظهر درجة تمركز مقاربة الروس للشـأن السـوري حول الدين وتصويرهم الثـورة صراعـا طائفيا، وعداءهـم الفظ للإسـلام. وأسـس الموقف الروسـي هذه هي ما تجعلـه لا يغتفر أكثر من مضمون الموقف نفسه.

وهذا البرنامج مسـتبطن بكامله في عقيدة "حقوق الأقليات" اليوم.

وهو يغفل الواقع الجوهري المتمثل في أن ما نواجهه في سـورية اليوم ليس الاستبداد السلطاني القديم، وأنه بقدر ما نُعـرِّف الأقليات تعريفا دينيـا أو مذهبيا، وهذا ما تضمره سياسة الأقليات، سواء كان عنوانها مبدأ "حمايـة الأقليات" القديم أم "حقوق الأقليات" اليوم، فإن هذه الأقليات كانـت تشـغل فـي ظـل الحكم الأسـدي موقعـا في النظام أقـرب إلى الحظوة منه إلـى التمييـز ضدها (وهـذا واقـع لم تأت على ذكره أو تسـتنكره قوة غربية يوماً)، وإن مـن الخـرق علـى الأقل الدفـع بمبدأ "حقوق الأقليات" في وجه ثورة لم تنطلق لأسباب دينية أو مذهبية، ويواجهها نظام امتيازي بوحشية قل نظيرها، وينتحل هو لنفسـه عقيدة "حماية الأقليات" (حمايتها من أكثرية معرّفة دينياً، وتبدو عدوانيتها طبيعة متأصلة).

النظام الأسدي ليس وريثاً للسلطنة العثمانيـة، بـل للانتداب الفرنسـي. فهو مثله متمركـز التفكير في شـأن المجتمع الـذي يحكمـه حـول الديـن والمذهـب، وهـو مثلـه لا يُكـن عواطـف إيجابية (كي نسـتخدم لغة معتدلة) حيال قطاع واسـع مـن محكوميـه، الأكثريـة الدينيـة، وهو أكثر منه بارع في سياسـة الأقليات، محليا وإقليمياً.

وغايـة ما تتطلع إليه هذه السياسـة هو إحلال سـلطان محل سلطان، وتبديل القاعـدة الاجتماعيـة الثقافيـة للحكـم السلطاني، مع بقاء بنى السياسة والدولة السـلطانية على حالها، ومع تجديد تخارج المجموعـات الثقافية. ليـس مصادفة أن أورث حافـظ الأسـد الحكـم في أسـرته. كل شيء سـلطاني في "سـورية الأسد"، والتوريث لا يأتي غريباً عليها.

وقـد تكون هـذه الدولة السـلطانية الجديـدة دولة امتيـازات اسـتبدادية مثل النظـام الأسـدي، أو اسـتعمارية مثـل الانتداب الفرنسـي، لكنها يمكن أن تكون ديمقراطية من نوع خاص، "الديمقراطية التوافقيـة". أي نظـام سياسـي تتحـول بموجبـه المجموعة الثقافيـة إلى وحدات سياسـية ثابتـة، وتتخذ القـرارات المهمة فيـه بالإجمـاع، مع منح أي جماعـة الفيتو على ما لا يناسبها، ويتميز بقدر واسع من اللامركزية وإدارة الجماعات لشؤونها على نحـو يذكر بالدولة السـلطانية التقليدية. "الديمقراطيـة التوافقية" دولة سـلطانية بـلا سـلطان. وهـي أقصى ما يـؤول إليه كلام القوى الغربية عـن حقوق الأقليات. نـدع جانبا إن حال الأقلية المسـلمة ليس مثاليـا فـي أكثرها، أمـا كان أولـى بتلك القوى أن تكلمنا على المساواة والمواطنة والديمقراطية وسيادة القانون؟

وبينمـا تـزداد الحاجـة في سـورية إلـى نقـاش سياسـي وحقوقي فـي هذه الشـؤون، فإن مـن المهـم أن نكون على بينـة ممـا يتـداول مـن شـعارات وأفكار. "حقـوق الأقليات" التي تثابـر قوى غربية على إقحامها في النقاش حول المسـتقبل السـوري تحيـل في أحسـن أحوالهـا إلى ديمقراطيـة توافقيـة. وفـي سـياقاتنا المشـرقية، المتميـزة بهشاشـة الـدول، كيانـات ومؤسسـات، وافتقـار الإقليـم إلـى نظام أمن مشـترك فعـال، والتخلف الاقتصادي، تبـدو الديمقراطية التوافقية قرينـة لتضعـف الاسـتقرار الداخلـي والخارجي معاً.

إن كان لنـا أن نتجـاوز البنـى السـلطانية، فليـس المخـرج إبـدال سـلطان بسـلطان على ما فعـل الانتداب الفرنسي والنظام الأسدي، وما قد يفضل الإسـلاميون اليوم، ولا هو دولة سلطانية بلا سـلطان على ما هو الحـال في لبنان، بل جمهورية مواطنين قائمة على أسـس علمانية منفتحة.

دون هذه، الكثير من المشـاق، منها عقابيل السلطانية الجديدة، ومنها ضعف العنصر التجريبي في تفكيرنا السياسـي، لكـن جمهورية المواطنيـن تعيّن الاتجاه الذي ينبغي أن نسير فيه.

المستقبل اللبنانية 29 / 7 / 2012

محمد حسنين هيكل: مبارك وزمانه من المنصة إلى الميدان

■ ياسر مرزوق

كتابنا اليوم هو الجزء الأول من ثلاثية كتبها الكبير "محمد حسنين هيكل" عن الثورة المصرية وما بعدها، "مبارك وزمانه من المنصة إلى الميدان، مبارك وزمانه ماذا جرى في مصر ولها، مصر إلى أين ما بعد مبارك وزمانه" ولعل الميزة الأولى في هيكل، هو قدرته على التواجد في قلب الحدث أو مجاراته أو صنعه أحيانا، ومواكبة للثورة المصرية أتت ثلاثية هيكل، لتؤرخ لحقبة من تاريخ مصر سيكتب ويقال عنها الكثير.

يقول هيكل في مقدمة الكتاب.. بدأت التفكير في هذه الصفحات باعتبارها مقدمة لكتاب تصورت أن أجمع داخل غلافه مجمل علاقتي بالرئيس حسني مبارك، وقد كانت علاقة محدودة وفاترة، وفي كثير من الأحيان مشدودة ومتوترة، وربما كان أكثر ما فيها - طولا وعرضا - لقاء واحد تواصل لست ساعات كاملة، ما بين الثامنة صباحاً إلى الثانية بعد الظهر يوم السبت 5 ديسمبر 1981 - أي بعد شهرين من بداية رئاسته - وأما الباقي فكان لقاءات عابرة، وأحاديث معظمها على التليفون، وكلها دون استثناء بمبادرة طيبة منه، لكن الواقع أن الحوار بيننا لم ينقطع، وكان صعبا أن ينقطع بطبائع الأمور طالما ظل الرجل مسيطرا على مصر، وظللت من جانبي مهتما بالشأن الجاري فيها، وعليه فقد كتبت وتحدثت عن سياساته وتصرفاته، كما أنه من جانب رد بالتصريح أو بالتلميح، وبلسانه أو بلسان من اختار للتعبير عنه أو تطوع دون وكالة.

وقد تراكم من ذلك كثير مكتوب مطبوع، أو مرئي مسموع، وفكرت أن أجعله سجلا وافيا - بقدر الإمكان - لحوارات وطن في زمن، ولعلاقة صحفي مع حاكم ومع سلطة في الوطن وفي الزمن، لكني رُحت أسأل نفسي عن الهدف من جمع هذا السجل، ثم ما هو النفع العام بعد جمعه.

- وبداية فقد ورد على بالي أن تسجيل ما جرى في حد ذاته قد يكون وسيلة إلى فهم مرحلة من التاريخ المصري المعاصر مازالت تعيش فينا، ومازلنا نعيش فيها!

- ثم ورد على بالي أن كثيراً من قضايا ما جرى مازالت مطروحة للحوار، وبالتالي فالتسجيل سند للوصل والاستمرار.

- ثم ورد على بالي أن بعض الملامح والإشارات في سياق ذلك الحوار ربما تكون مفيدة في التعرف أكثر على لغز رجل حكم مصر، وأمسك بالقمة فيها ثلاثين سنة لم يتزحزح، وتغيرت فيها الدنيا، وظل هو حيث هو، لا يتأثر.

وذلك لابد له من فحص ودرس!

تركت خواطري تطل على كل النواحي، ثم اكتشفت أن الاتجاهات تتفرع وتتمدد - لكن الطرق لا تصل إلى غاية يمكن اعتبارها نقطة تصل بالسؤال إلى جواب.

وعُدت إلى ملفاتي وأوراقي، ومذكراتي وذكرياتي، وبرغم آثار كثيرة وجدتها، ومشاهد عادت إليّ بأجوائها وتفاصيلها، فقد طالعني من وسط الزحام سؤال آخر يصعب تفاديه، مجمله: ماذا أعرف حقيقة وأكيداً عن هذا الرجل الذي لقيته قليلا، واشتبكت معه ومع نظامه طويلا...، والأهم من ذلك: ماذا يعرف غيري حقيقة وأكيداً عن الرجل، وقد رأيت - ورأوا - صورا له من مواقع وزوايا بلا عدد، لكنها جميعا لم تكن كافية لتؤدة لنا اقتناعاً بالرجل، ولا حتى انطباعا يسهل الاطمئنان إليه والتعرف عليه، أو الثقة في قراره.

في مطلع كتاب اليوم يأتي هيكل بتحليل قانوني مقنع عن محاكمة مبارك قائلا: مع أن مبارك وصل إلى قاعة محكمة - ممددا على سرير طبي دخل به إلى زنزانة حديدية - فإن التهم التي وُجهت إليه لم تكن هي التهم التي يلزم توجيهها، بل لعلها الأخيرة فيما يمكن أن يوجه إلى رئيس دولة ثار شعبه عليه، وأسقط حكمه وأزاحه. والمنطق في محاكمة أي رئيس دولة أن تكون محاكمته على التصرفات التي أخل فيها بالتزامه الوطني والسياسي والأخلاقي، وأساء بها إلى شعبه، فتلك هي التهم التي أدت للثورة عليه.

أي أن محاكمة رئيس الدولة - أي رئيس وأي دولة - يجب أن تكون سياسية تثبت عليه - أو تنفي عنه - مسئولية الإخلال بعهوده ووعده وشرعيته، مما استوجب الثورة عليه، أما بدون ذلك فإن اختصار التهم في التصدي للمظاهرات - قلب للأوضاع يستعجل الخاتمة قبل المقدمة - والنتائج قبل الأسباب، ذلك أنه إذا لم يظهر خروج مبارك على العهد والوعد والشرعية، إذن فقد كان تصديه للمظاهرات ممارسة لسلطته في استعمال الوسائل الكفيلة بحفظ الأمن العام للناس، والمحافظة على النظام العام للدولة، وعليه يصبح التجاوز في إصدار الأوامر أو تنفيذها - رغبة في حسم سريع، ربما تغفره ضرورات أكبر منه، أو في أسوأ الأحوال تزيداً في استعمال السلطة قد تتشفع له مشروعية مقاصده.

وكذلك فإنه بعد المحاكمة السياسية - وليس قبلها - يتسع المجال للمحاكمة الجنائية، ومعها القيد والقفص.

بمعنى أن المحاكمة السياسية هي الأساس الضروري للمحاكمة الجنائية لرئيس الدولة، لأنها التصديق القانوني على موجبات الثورة ضده، وحينئذ يصبح أمره بإطلاق النار على المتظاهرين جريمة يكون تكييفها القانوني إصراره على استمرار عدوانه على الحق العام، وإصراره على استمرار خرقه المستبد لعهده الدستوري مع الأمة.

ثم يطرح تساؤلاً ويجيب عليه: كيف استطاع هذا الرجل أن يجلس على رئاسة مصر ثلاثين سنة؟ ثم كيف استطاع شعب مصر أن يصبر ثلاثين سنة ؟

وبالنسبة لـ"كيف" الأولى فالجواب على سؤالها: إنه حظه طالما استطاع البقاء!

وأما "كيف" الثانية فجواب سؤالها: أنها مسئولية الشعب المصري كله لأنه هو الآخر استطاع - استطاع بالصبر والصمت - وإظهار السأم والملل أحيانا - حتى جاءت ثورة 25 يناير 2011، وعندما لم يعد الصبر قادرا، ولا الصمت ممكنا، ولا الملل كافيا!

يبدأ هيكل فتح صندوق أسرار أيام مبارك، ليكشف فيها عن العديد من الألغاز والأسرار لم يعرفها المصريون عن حاكمهم لغز رجل حكم مصر ثلاثين سنة.. "آلاف الصور والحقيقة ضائعة.. هؤلاء الذين يظنون أنهم يعرفون مبارك هم في واقع الأمر لا يعرفون عنه شيئا..".

كيف انهارت الصورة الأكثر بهاءً، باعتباره قائداً لما أطلق عليه وصف "الضربة الجوية" - إذن فكيف نزلت "الأسطورة" إلى تلك الصورة التي رأيناها بظهوره ممددا على سرير طبي وراء جدران قفص في محكمة جنايات مصرية، مبالغاً في إظهار ضعفه، يرخي جفنه بالوهن.

إذا ما اعتمدنا وصف مبارك لعصره، زاعماً أنه زمن الإنجاز الأعظم في التاريخ المصري منذ محمد علي - إذن فكيف يمكن تفسير الأحوال التي ترك مصر عليها، وهي أحوال تفريط وانفراط للموارد والرجال، وتجريف كامل للثقافة والفكر، حتى إنه حين أراد أن ينفي عزمه على توريث حكمه لابنه، رد بحدة على أحد سائليه وهو أمير سعودي تواصل معه من قديم، قائلاً بالنص تقريبا: يا راجل حرام عليك، ماذا أورث ابني - أورثه خرابة؟!

ولم يسأله سامعه متى وكيف تحولت مصر إلى خرابة حسب وصفه، وهل تولى حكمها وهي على هذا الحال؟ وإذا كان ذلك فماذا فعل لإعادة تعميرها طوال ثلاثين سنة؟ وهذه فترة تزيد مرتين عما أخذته بلاد مثل الصين والهند والملايو لكي تنهض وتتقدم.

ثم إذا كان قد حقق ما لم يستطعه غيره منذ عصر محمد علي - إذن فأين ذهب هذا الانجاز، وكيف تحول - تحت نظامه إلى خرابة، ثم لماذا كان هذا الجهد كله من أجل توريث خرابة خصوصا أن الإلحاح عليه كان حقل الألغام الذي تفجر في وسطه نظام الأب حطاما وركاما، مازال يتساقط حتى هذه اللحظة بعد قرابة سنة من بداية تصدعه وتهاويه.

هي صور ينقلها هيكل لزعيم مصر، صور ادعاها هو أو إعلامه وحين لا تكفي الصورة لإجلاء الحقائق، ينتقل إلى البحث عن الرجل ذاته!

وعلى امتداد كتابنا حاول هيكل البحث عن الرجل ذاته قبل النظر في ألبوم صوره، وعاد إلى ملفاته وأوراقه، ومذكراته وذكرياته عن حسني مبارك، ليسجل ما حدث ولم يسعى إلى لقاء أحد ممن عملوا مع "مبارك" عن قرب أو عايشوه، مؤكداً أن الكتاب ليس سيرة حياة مبارك. مشيراً "إلى أن تسجيل ما جرى في حد ذاته قد يكون وسيلة إلى فهم مرحلة من التاريخ المصري ما زالت تعيش فينا، وما زلنا نعيش فيها. وليرسم لمحات ومشاهد من زمن طال ثلاثين سنة، كانت من أغرب السنوات في التاريخ المصري الحديث".

كما يضيء على الحوار الذي جرى بينه وبين السادات ذات يوم، حول الشخصية التي تصلح لتكون نائبًا للأخير، ووقتها كان السادات متحيزًا لمبارك، مؤكداً أن اختيار مبارك لهذا المنصب كان لأسباب سياسية، لم يكن بينها سبب عسكري واحد.

أضاف الكاتب الكبير في محض رده على كلام السادات بشأن اختيار مبارك نائبا لرئيس الجمهورية: "حسني مبارك لا خبرة له بشئون الحكم في سياسة كل يوم، خصوصا ما يتعلق بمطالب الناس ومشكلاتهم، ثم لماذا لا تتيح لمبارك فرصة التجربة وزيراً لإحدى وزارات الإنتاج أو الخدمات، حتى يتفهم الرجل أحوال الإدارة المدنية، وحتى يحتك بهم ولو من باب الإنصاف؟" لكن السادات أجاب عليه قائلا: "لا، لو فعلت ما تقترحه فسوف أحرق حسني مبارك.. الإنجاز السريع في الوزارات التنفيذية مسألة في منتهى الصعوبة".

بعد هذه الحوار، خرج هيكل -وفقاً لكلامه في كتابه- بعدة حقائق أهمها، أن اختيار مبارك لمنصب نائب الرئيس لم يكن اختياراً بسيطا، بل مركباً، حكمته اعتبارات أخرى، فهو لم يكن اختياراً من بين الرجال الذين ظهروا في حرب أكتوبر، على أساس دور متفوق أو غيره فيها، وإنما كان اختيار مبارك شيئاً آخر، إلى جانب أكتوبر يقدمه ويزكيه، وأن الرئيس السادات اختار رجلاً يعرفه من قبل، وقد اختبر قدرته على الفعل واستوثق منه، وأن اختياره للرجل وقع في ذهنه قضية حيوية بالنسبة له ولسياساته هي قضية تأمين النظام في ظروف تحولات حساسة.

وعن تقبل الشارع المصري لمبارك في بداياته قال: بعض الناس تلقفوه حين وجدوه ولم يتوقفوا أمام شخصيته وهو يقفز من المنصة إلى الرئاسة، فقد أخذهم هول ما وقع على المنصة، وتمسكوا بمن بقي بعده. "والمنصة هي التي اغتيل عليها الرئيس السادات".

وبعضهم أخذه الظاهر من الرئيس الجديد واستخف بما رأى، واعتبره وضعاً مؤقتاً لعبور أزمة، وبالتالي فالإطالة في تحليله إضاعة للوقت.

وبعض شدته الوقائع التي ظهر الرجل طرفاً في معمعانها، واستطاعت الصورة العامة للأحداث الكبر التي دهمت المنطقة أن تستوعب دوره ضمن الأدوار، ومع قيمة مصر فإن الجالس على قمتها التحف برايتها، وساعده الطامعون في إرث الدور المصري على تحويل هذه الراية إلى برقع يستر ملامح متغيرة للسياسة المصرية.

وبعض - خصوصا من أجيال الشباب - نشأوا ولم يعرفوا رئيسا غيره، وبالتالي فإن أجيالاً تعودت عليه، وتأقلمت بالطبع على وجوده.

وبعضهم رغبة في راحة البال تجاهل السؤال عن الرجل، واستعاض عنه بقبول جواب معباً بصنعة إعلام يأتمر بالغلبة - غلبة السلطة - أو غلبة الثورة في مصر، وكان لسوء الحظ إعلاماً فقد تأثيره، وإن بقي هديره.

وثائق ومعلومات وأحاديث عن السلطة والثروة والتوريث "والشاهد أن تلك اللحظة كانت نقطة تحول كبير في توجهات "مبارك"، فقد وجد أطرافاً تطلب تقوية دوره في المنطقة وتوظيفه، بحيث يأخذ معه وضع مصر في الإقليم كله إلى حيث يريد وكما يشاء، وكانت تلك البداية في مطلب تأييد حكمه طول حياته، مسنوداً بقوى دولية وإقليمية، وكان وحتى دون أن يقصد أحد تمهيداً منطقياً لورود فكرة التوريث على البال،

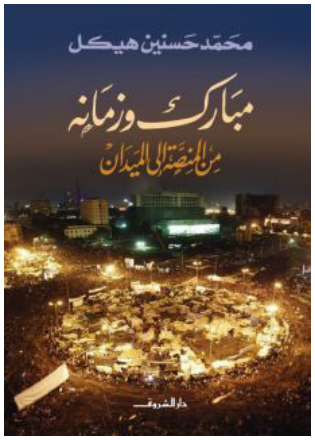

فمبارك الآن يؤدي دوراً، وهو يسحب مصر وراءه في أدائه، ومن المهم أن يستمر ذلك، ولا شيء يحقق ضمان استمراره لأطول مدى إلا أن يكون الابن استمراراً للأب، أو على الأقل لتأكيد الاستمرار على نفس الطريق..".

حسين سالم، أشرف مروان وآخرون ونهب المال العام "المشكلة أن حل مشكلات مصر على طريقة "ماكيافيللي" لم ينجح، لسبب واضح وهو أن جماعات المصالح التي أحاطت بالأب، وزحفت مع الابن تحولت إلى سرب جراد أتى على ما جاءت به السياسة، متحررة من الأخلاق على طريقة ماكيافيللي، أي أن الوعاء الاقتصادي الذي امتلأ بالسيولة بعد حرب الخليج، جرى تفريغه بالنهب".

وعن تشبث مبارك بالسلطة حتى اتجاه ابنه، "من المفارقات أن بعض المراقبين أدهشهم أن الرئيس "مبارك" تراجع بسرعة أكثر من اللازم في تقديرهم ثم استسلم دون مقاومة جدية لمطلب التنحي بعد ثورة 25 يناير 2011 وكان بينهم من وجدوا لذلك تفسيرا، مؤداه أن الرئيس "مبارك" أراح نفسه وتنحى، وهو لم يتنح لنفسه فقط وإنما أزاح ابنه وسط الزحام قبل أن يخرج هو من الصورة عندما عيّن السيد "عمر سليمان" نائبا للرئيس، وكانت الحوادث أسرع من الجميع".

ينهي كاتبنا مؤلفه بالعبارة التالية: "إن السياسة الأمريكية مضت تلاحق الحوادث، وتتعامل مع التطورات، وتتحرك بكل طاقاتها، والهدف المطلوب بإلحاح «مصر يجب ألا تضيع من يد الولايات المتحدة مرة أخرى» - وذلك هو الشبح المعلق على أفق المستقبل في مصر - هذه اللحظة الخطرة من التاريخ".

استمر زمن مبارك ثلاثين سنة بأكملها من حياة وطن، وهي نفسها ثلاثين سنة من المتغيرات والتحولات في الإقليم وفي العالم، قادنا رجل لا يعرفه المصريون إلى مصائر لا يعرفونها - فإن زمان هذا الرجل يصعب تجاوزه أو القفز عليه مهما كانت الأسباب، مع أن هناك أسباباً عديدة أبرزها أن التاريخ لم ينته بعد كما كتب بعض المتفائلين من الفلاسفة الجدد.

بقراءتنا لأي من أعمال هيكل نكون في حضرة المؤرخ المفكر الذي يجدد في قراءة التاريخ مبدعاً في نظرته إلى كمية المعطيات وأهميتها ومبتعداً عن السرد التاريخي الذي ينظر إلى الحوادث دون تعليل أو تدقيق عميق، فهو الكاتب، بثقة هي بنت المعرفة الرصينة لأن الثقة إذا لم تكن بنت المعرفة الواعية فسرعان ما تتزعزع وتزعزع صاحبها معها.

لكن يؤخذ على كتابنا اليوم، وعلى الثلاثية بمجملها، أن هيكل وإن حافظ على رشاقة أسلوبه في الكتابة وقدرته المبدعة على الدقة في التعبير، إلا أنه ابتعد عن عادته في أعماله السابقة وهي رسم خطوط اللوحة السياسية والتاريخية بأسلوب أدبي جذاب، وترصيعها بشواهد من خزائن الفلسفة والتاريخ والآداب التي يمتلك مفاتحها، ربما لأن الأعمال كانت وليدة البحث المفاجئ، أو لغلبة الطابع الصحفي خاصة الجزء الثالث الذي أتى جمعاً لحوارات ولقاءات أدلى بها الأستاذ على مدار العام الفائت...

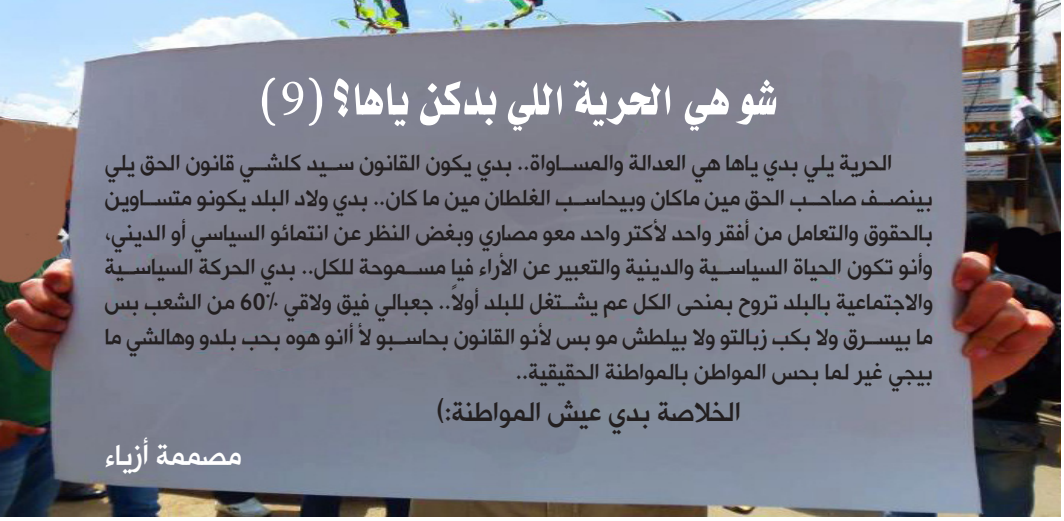

عهد زرزور

177 روحٌ، انتهى اليوم بها لتكون على الموعدْ.. وأنا دائماً الموعدِ يخلفني، ويحذرني، لا أريد من العمر بقية، وليس ذلك ترفاً ومللاً وضجراً.. بل أشعر أنني لم أرتقِ شرفاً، كي يحتضنني تراب الطهرْ، وتزفني ملائكة الطريقْ إلى العلى.. يا سياط الضميرْ اهدئي ليلة..

فدوى روحانا

السطحية التي يتعامل بها بعض مثقفي اليسار الفلسطيني، أو أغلبهم، في الداخل مع الثورة السورية ونظرتهم إليها بمنظارهم الإيديولوجي الضيق على أنها مؤامرة إمبريالية مع تجريدها من أبعادها الإنسانية والمأساوية، أصبحت لا تطاق!!!.. الموقف الفلسطيني الداخلي من الدم السوري مخزي!!

محمد كشكول

شفت بعنامي الراجل اللي واقف ورا فاروق الشرع..

إياد عماشة

سوريا ليست حنونة، سوريا لئيمة، نعم لئيمة.. مشكلتي مع سوريا أنها فضيحتي.. لا شيء يقلقني بقدرها، لا شيء يخيفني بقدرها..
يا بلدي، غدا هو يوم آخر.. يا سوريا الجريحة، كوني بخير.

صوفيا مشهدي

يا حلب، ما تبقى من سوريا معاكي للموت (الشعب السوري الحر)

خولة دنيا

سرقات على نطاق واسع لآثار سوريا ومتاحفها.. يتم تهريبها للخارج.. لصالح سارقي ونهابي سوريا.. الآثار ملف منسي لا يتنبه له أحد.. لن يبقوا لنا سوى آثار القصف والدمار.. ورغبة كبيرة بإعادة البناء.. أما آثار سوريا فكيف نعيدها؟

فرج بيرقدار

أنا طوال عمري أثق بالمناضل، وأستطيع القول الصديق ميشيل كيلو. ولكني أعتقد أن ثقة الشعب السوري به هي أولا وأساسا. أعتقد أنه في الشهور الأخيرة بدأ يخسر ثقة الكثيرين. بالطبع الثقة ليست دائما على حق، وميشيل يبحث عن الجدوى وليس الثقة، ولكني حتى في هذا المعيار أرى أنه يخسر الكثير، وأمل له التوفيق وطنيا، فإن لا، فشخصيا على الأقل. نداء روما أدنى بكثير مما ينبغي، وبعض رجالاته أيضا.

بشير كفاح

ما لم يحاول فهمه الثوار: دع مخالفك - إن كنت تحب الحق - يصرح بما يعتقد، فإما أن يقنعك، وإما أن تقنعه، ولا تعامله بالقسر، فما انتشر فكر بالعنف، أو تفاهم قوم بالطيش والرعونة.. جمال الدين القاسمي

رشا عمران

أمس سألني صديق عزيز لم أره من مدة إن كنت نادمة الآن على موقفي بعد أن زادت تحولات الثورة نحو مظاهر الأسلمة وبعض العنف وازدادت الأصوات المطالبة بإبادة الطائفة التي انتمي لها! جوابي السريع كان: نادمة على شيء واحد ووحيد فقط: تجنبي وخضوعي للضغوطات لأغادر سوريا.. واليوم وبدون تسرع وبعد تفكير أقول نادمة على خروجي من سوريا ونادمة أنني كنت من المتورطين بالمراقبة والصمت طيلة السنوات الماضية.

رباب حاج حسين

خسرت في هذه الثورة أصدقاء كنت أحبهم جدا.. لكني كسبت مبنا بكاملها لم أكن أعرفها.. كسبت مودة وأصالة لم أكن لأحلم بها أبدا.. كسبت أحمد زوجا ورفيق درب نحلم سوية بوطن السلام والفرح.. نرسم لعالمنا القادم صور تغمرها الألفة والمحبة في بلد تقدس الحرية والحب.. كسبت معنى للحياة

رولا ركبي

بلد يحكمه مجهولون يختبئون تحت صورة شبح!

إياد حياتلة

أهالي مخيّم اليرموك الذيْن خلّدوا ذكرى دير ياسين بتسمية أحد شوارع المخيّم باسمها، وتسمية مجمّع عيادات الهلال الأحمر الفلسطيني باسمها كذلك، كان لهم النظام الأسدي المجرم بالمرصاد فأكمل ما بدأه العدو الإسرائيلي وقام بإحراق هذه العيادة اليوم إذْهم يحاربون الذاكرة أيضا

جورج ضومط

أنتظر الثورة العميقة في وعي السوريين جميعاً.. انتبهوا: لا عداوة بين الأموات.. هناك عدو واحد هو الموت وصانعه.. أكرر لا عداوة بين الأموات!!! الموتى في الجانبين لم يعودوا أعداء..

لينا مولا

تبدو الشام ملوثة بعار قديم، تحاول أن تخلعه عن جسدها المثقل بكل أنواع الهواجس، تجاهد كي تعيد إلى الياسمين أريجه قبل أن يكمل اقتلاعه الجلاد، هو كدراكولا في تعطشه للدماء.. يفضل أن لا يشرب من كأس الموت وحيدا يريد إلحاق الدمار في كل شبر سوري، هذا طقس غريب لم نعشه يوما.. لكن الأيام تدور كما الحياة لتمنحنا باقة من الأمل والعنفوان، وإن النصر لقريب.. قادمون

رجاء مخلوف

قرية السعادة.. هي قرية كنا نمر كل يوم لدى توجهنا لموقع التصوير إلى الجنوب السوري.. بيوتها متداعية.. متناثرة بوحشة هنا وهناك.. بضع شجيرات زيتون.. وطريق شبه معبد.. هو نفسه ملعب الأطفال.. ودكان صغير يبيع العلكة والحلوى القديمة لهم.. والدحادل لتنمية المدارك.. يكاد لا يمر بها أحد سوانا.. وكنت كل يوم أسأل نفسي.. ربما مررنا اليوم بشاب مبدع أو صبية موهوبة.. لكن البؤس يغمرهم.. والنسيان.. مساؤك خير يا قرية السعادة.. ولك يا منازل في القلوب منازل.

عمر عناية

في حلب نساء ورجال كثيرون، في عقول هؤلاء الكثير من الخوف، في أيدي هؤلاء الكثير من الرصاص، في عيونهم الكثير من الموت المرتقب والماضي، في قلوب هؤلاء الكثير من الألم.. على طريق حلب الكثير من الجثث، في عقول هؤلاء نزع كل شيء، في أيدي كل هؤلاء الكثير من آلات الموت، في عيون هؤلاء أطفأ كل شيء، في قلوب كل هؤلاء شمعة صغيرة، لم تعد تضيء الكثير.

يوسف أبو خضور

لا تدخل في معادلة الداخل والخارج، لأنها مستحيلة الحل، لا تدع أحدا يسرق حقك في الثورة، أنت ضحية النظام، حتى لو لم تمت أو تجرح أو تنزح، حتى لو كنت عاجزا عن حك شعر رأسك.. لا تنتظر شهادة من أحد، ولا تسقط في الفخ.

هاني عرقسوسي

على يميني ولدي، وعلى يساري ابنتي، لن تستطيع أن تحرمني العيش والحياة.. أنا أحيا وأنت تشقى.. أنا أعيش وأنت تتآكل وتتعفن بهدوء.. أنا أعيش يوما بعد يوم، وأنت تشقى يوما بعد يوم.. كم أنت تعيس يا دكتور..

فراس أتاسي

نزوح الناس من مناطقهم.. هو بسبب وحشية النظام.. ليس بسبب مقاومة الأحرار والتطلع إلى الحرية!! تذكروها.. وذكروا بها من كان عنها غافل..

بكري نيربية

سلامٌ على كل ورقةٍ من أوراق الشجر نام عليها الرصاص ولم تسقط.. سلامٌ على أرضٍ حفرت عليها الدبابات موتا أحمرا ومازالت تولد كل يوم مساحات أكثر.. سلامٌ على من أتاه الموت وأصر قلبه على أن ينبض.

راسيا حيدر

حبك رح يساوي قلبي ثلاثي الأبعاد.. وأنا متعودة ع فلسطين سوريا.. و.. بس.. !!!

أسامة محمد

الدعوة للسلم.. بمعنى القبول المؤقت أو المستمر بدور القتيل.. اعتداء على الحياة.. ونفاق عن بعد. القتل المؤقت قتل دائم.. والموت هو الموت.. السلم مشروع متكامل يضمن غياب الخوف والقتل.. الحياة.. حلوة..

كرم نشار

الثورة رح تنتصر.. والنظام رح يسقط.. وبعدين رح ندخل بدوامة التغيير، رح نزعل كتير ونحبط كتير، لأنه سوريا قداها طريق طويل والاستقرار الديمقراطي أصعب بكتير من الاستقرار القائم على القمع.. لكن هل الثورة رح تضل أعظم فعل جماعي للشعب السوري في تاريخه المعاصر.. وأنا شخصيا، في حال عشت، رح ضل ندندن لعمري تسعين سنة، "يما مويل الهوا.. يما مويليا.. ضرب الخناجر ولا حكم الأسد ليا"..

جولان حاجي

(الأمّ في فجر الزيارة)
ثمة بحرٌ يتقلب ويتعرّقُ تحت التراب، وفتى يبكي لأنه رأى الخبز. إنه أبتك.. مدّي يدك وزحزحي هذه الصخرة بلمسة. من تحت هذه الشاهدة ستسري موجة عطش.. وتطبع على راحتك قبلة هادئة كهذا العشب، رقيقة كمنديل رأسك.

رزان غزاوي

عن الأسئلة المتكررة تبع بدك سوريا إسلامية أم علمانية:
1 - مجرد تصنيف احتمالات مستقبل سوريا بين "علماني" و"إسلامي" يعزز تماما تعريف أحداهما بضدية الآخر. وهذا غير صحيح، هناك إسلاميين علمانيين.
2 - الطرح يبدو وكأن الإسلامي متغلغلا (وهاد مانو صحيح تاريخيا) والعلماني منفتحا (وهاد مانو صحيح تاريخيا).
3 - السؤال يخلي الواحد يفكر انو في إسلاميين خير الله بالشارع. وهذا غير صحيح، الحراك هو شعبي، وشعب سوريا بمجمله وبكل أديانه هو شعب متدين محافظ، وهذا لا ينفي وجود إسلاميين، لكن الشارع مانو مصبوغ إسلاميا. وهون الفرق.
4 - فهمنا للإسلامي مستورد. وكذلك فهمنا للعلماني. والدليل على ذلك صيغة السؤال نفسه واختصاره التبسيطي للحراك أولا في سوريا، وللأفق المستقبلي للبلد.
5 - شخصيا، الشعب السوري مذهل، بلغته ومفرداته وشعاراته وأصراره وشجاعته وإبداعه وانفتاحه. بالنسبة إلي، المرحلة الجاية المرتقبة ما رح تكون غريبة عن الحاضر.
6 - يُمل

ندى صبح

في اليرموك شيّعوا فائض الدم الفلسطيني سرا.. !!! حتى لا يدل الدم على قاتله، وحتى يذهب الشهداء إلى موتهم بلا وداع يليق بفائض دمهم.. !!! أيها الفلسطينيون: احفظوا وجوه جلاديكم جيدا.. فالطوفان قادم.. قادم.. والثورة بألف خير..

يامن حسين

لأسباب يعرفها البعض استمرت بالعمل بتلفزيون الدنيا أول شهور الثورة وحين كان ينبغي.. استقلت.. استقال بعدي عدد من الموظفين ولم يخرجوا خارج البلد ويعلنوا انشقاقهم من فرنسا أو غيرها.. بل بقيوا في البلد يقدمون كل ما فيهم للثورة.. السؤال هل في حال قتلت وذبحت قبل استقالتي كنت سأكون كلب فاطس! هل يحل قتل الذين استقالوا بعدي؟.. كلفتني الاستقالة مالا احتمل من تحجير قسري ومن تهديد لأهلي وملاحقات أمنية.. من يملك أطفالا تصعب عليه الاستقالة من مكان كالتلفزيون إلا أن توفر له مأوى خارجي علما أن فرصة ذلك قليلة وأنتم تعرفون.. ثم إن العقاب لا يكون بالقتل فليحاسب إذا أخطأ.. لكن أوقفوا القتل أيها الخونة للثورة علما أني أكاد أجزم أنكم لا من الثورة، مجرد نبّاحين أفاقين قتلة أجرّتم عقولكم لمن يركب..

مُبايعة

لم تكن تتعدى الثالثة عشرة من عمرها، وكان يومها موعد المسيرة الكبرى لتجديد البيعة للقائد الخالد.. لم تكن سوى واحدة من مئات بل آلاف يهتفون بروح القائد، رغم أن كثيرون كانوا يمشون بصمت ثقيل خاصة الأساتذة ويتركون المهمة للـ«هاتف» في مقدمة كل مجموعة والذي لا بُد من ترديد هُتافه أو على الأقل التصفيق بكافة أنواع الإيقاعات الطلائعية والعقائدية من خلفه!
بدأت تهتف بشكل آلي كما الجميع مراراً وتكراراً، ذَكرت الأقدام والحناجر، وبدا المشوار وكأنه لن ينتهي أبداً، كان يشبه برتابته خلود الأب القائد! وفجأة أخذ صوتها يعلو شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الهُتافات تخرج منها صُراخاً هستيريا يكاد يشّق رئتيها وينفجر من شرايين عُنقها.. وكلما انتهت من هُتاف كانت تضحك بشكل هستيري، نظر إليها رفاقها ومَن حولها وكأن بها مسّاً، إحدى صديقاتها من المرحلة الأكبر قالت لها بصوت منخفض ما بين ضاحكة وقلقة وهي تنظر يميناً ويساراً لتتأكد أن أحداً من الحشد لا يسمعها: «طولي بالك»، لكنها لم تأبه بتعليق صديقتها أو لمن حولها ونظراتهم الحيرى.. واستمرت حتى آخر المسيرة على هذا المنوال، كانت تشعر بحرّية غريبة خارج نطاق ذاك المكان وذاك الزمان، لكنها كانت واثقة تماماً بأن أحداً لن يجرؤ على أن يطلب منها التوقف أو خفض صوتها..

لما الخاير

الكرامة

لا قيمة للإنسان في دولة الاستبداد ولذا ثرنا لنشعر بالعزّة والكرامة في هذا الوطن ونتمتّع بالاحترام فحقنا أن نكرّم في وطننا
إن الكرم نقيض اللؤم ويعني العتق والأصل والصفح والفضل والعظمة والشرف والكريم اسم جامع لكل ما يحمد وصفة من صفات الله وأسمائه وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه وهو الكريم المطلق أما الكريم النسبي فهو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل ويجتمع في الكرامة العدل والعفة والجمال والحكمة والأدب فالكرامة هي القيمة الممنوحة إلى الشخص الإنساني في حدّ ذاته بمعزل عن طباعه الفيزيائية وموقعه الاجتماعي الإنسان فيها الغاية التي تمنحه قيمة مطلقة لا حدود لها وليس لها ثمن ولا تقدّر بثمن، هي العدل والمساواة والاحترام للإنسان وقيمته المطلقة وتقديره والاحترام المتبادل بين كل الناس وتقديس إنسانيتهم بغض النظر عمّا هم عليه سوى أنّهم إنسان فلا كرامة لمن لا يكرّم غيره، أساس الكرامة العدل وتبدأ في احترام حقوق الإنسان التي تسري عليه وعلى الآخر في عالمه واحترام القوانين التي ترعاه كوفاء منه لكرامته وكرامة شركاءه، إن وعي وجود شريك على الأرض واحترام هذا الوجود أول الخطوات نحو تلمّس معنى الكرامة فهل ندرك حقا معنى أن تكون ثورتنا ثورة كرامة.

غيداء العودات

صور قديمة من عادات السوريين

■ بلال سلامة

سوريا بلد التراث والأصالة، بلد يروي في كل عادة من عاداته القديمة قصة المحبة والتواصل الأخلاقي والحياتي والديني الذي اعتاد أهله العيش فيه. كثيرة هي العادات والتقاليد التي توارثها السوريون جيلاً بعد آخر، فبعضها وصل إلينا وبعضها اندثر مع مرور السنين. وأذكر هنا بعضاً من هذه العادات التي توارثناها عن آبائنا.

عادات الزواج:

اعتاد الناس قديماً أن يتم اختيار العروس من قبل أهل العريس فتذهب والدته لمشاورة أم الفتاة، وفي حال الموافقة المبدئية تذهب "جاهة" مؤلفة من والد الشاب وإخوته وأعمامه وأخواله وكبار رجالات البلدة وشيخ الجامع للتقدم بشكل رسمي لطلب يد الفتاة من والدها والاتفاق على مهرها، ويقرؤون الفاتحة على نية التوفيق، ويتم تحديد موعد العرس. يعطى العريس لعروسه مبلغاً من المال المتفق عليه للتحضير للعرس.

يسبق يوم العرس يوم "الحناء" وهي عادة تقليدية في الريف تصبغ فيها يدا العروس برسوم الحناء وتكون لها حفلة بين أخواتها ورفيقاتها بصيغة الوداع لها.

كانت العادة أن يمتد العرس من يومين إلى ثلاثة أيام، وأثناء الاحتفال تبقى العروس في بيت أبيها. يجتمع المدعوون ويرقصون على إيقاع الطبل والمزمار وتذبح الذبائح ويحضر أهل البلدة لتناول الطعام في بيت العريس، في حين يتم إرسال اللحم والرز واللبن والسمن إلى بيت العروس لإعداد الطعام الخاص بها وبأهلها ورفيقاتها وفي عصر اليوم الأخير يأخذ العريس وأهله عروسه من بيت أبيها إلى بيته. ويظل المدعوون يرقصون ويحتفلون حتى المساء.

عادات الجنائز:

منذ عشرات السنين اعتاد الناس لدى موت أحدهم أن يقوم أهله بغسله وقد يحدث هذا بحضور الشيخ، ثم يصلى على المتوفى ويؤخذ بعدها إلى المقبرة ليدفن. يقف أهل المتوفى وأقرباؤه للأخذ بالخاطر، وبعدها يعودون إلى بيتهم ويقومون باستقبال المعزين مدة ثلاثة أيام. يقوم الأقرباء والجيران خلالها بأخذ الطعام لأهل المتوفى، وتقدم القهوة المرة للمعزين. في العزاء يحاضر شيخ بالناس ويقرأ القرآن الكريم. أما النساء فيذهبن إلى المنزل لتقديم العزاء لقريبات المتوفى. وفي اليوم الثالث يقدم أهل المتوفى الرز والبرغل والسكر وما يستطيعون دفعه من صدقات على روح الميت، فيوزع قسم منها حينها ويظل القسم الآخر ليوزع لاحقاً في يوم الأربعين.

كتب العلامة عبد القادر المغربي، نائب رئيس المجمع العلمي بدمشق سابقاً في أوراقه: (بينما كنا نسير في السوق الذي يسمونه السوق الكبير، وهو الممتد من باب الجابية إلى باب شرقي، وكان ذلك في عام 1184م، إذ صادفنا جنازة لثري من أهل دمشق فرأينا لها ترتيباً عجيباً: ذلك أنهم يرتبون أمامها قراء يقرؤون القرآن الكريم بأصوات شجية، وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً، يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان، فإذا وصلت الجنازة إلى باب الجامع سكت هؤلاء القراء. وقلنا بقي علينا أن نحضر موضع العزاء، فأسرعنا في الوقت المعين إلى الجامع الأموي وأخذ الناس يتوافدون إلى الجانب الغربي من صحن الجامع. وبعد أن أخذوا مجالسهم صفت أمامهم ربعات من القرآن الكريم وبدؤوا يقرؤون وكان يدور في هذا الجمع رجال هم (نقباء الجنائز) وظيفتهم ترتيب الاجتماع وتقديم الربعات وحفظ النظام، وكنا من وقت إلى آخر نسمع أصواتهم ترتفع فأصغينا إليهم، وإذ هم يعلنون قدوم الواصلين إلى العزاء من محتشمي البلدة وأعيانها وكانوا يسمونهم بألقابهم الهائلة التي اعتادوا أن يضيفوها إلى كل واحد منهم، مضافاً كل لقب إلى كلمة (الدين)، وما أكثر هذه الألقاب فقد سمعت نقيباً من هؤلاء النقباء يعلن قدوم أحد الأعيان بقوله: جاء "صدر الدين" ثم سمعنا نقيباً آخر ينادي "شمس الدين" وثالثاً يعلن "بدر الدين" و"جمال الدين" الخ...

وكان إذا لقي أحد صاحبه خاطبه بقوله: جاء المملوك أو الخادم ثم يومئ بعضهم إلى بعض بالسلام، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض. ومن عجيب حالهم أنهم - صغيرهم وكبيرهم - يمشون وأيديهم إلى خلف، قابضين بالواحدة على الأخرى، وإذا اعترض عليهم معترض اعتذروا بأنهم يجدون في صنيعهم هذا نشاطاً في الأعضاء وراحة من الإعياء).

استقبال الحجاج:

عند قرب قدوم الحجاج بالسلامة يسبقهم (الجوخدار) الذي يبشر بمقدم الحجاج، فتخرج المدينة عن بكرة أبيها لاستقبالهم وتقام الاحتفالات ورقصات المولوية على مدى عدة أيام، وتزيّن البيوت لاستقبالهم وتوضع اللافتات المكتوبة لهذه المناسبة (مثل من زار قبري وجبت له شفاعتي، حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً). يأتي الأصحاب والجيران لتهنئة الحاج والذي بدوره يجلب معه الهدايا كالأحجار الكريمة والمسابح والحنة وماء زمزم ليسقي منه الزوار.

حفل الطهور:

يدعى الأصحاب والأقارب بهذه المناسبة وتذبح الذبائح وتمد الموائد وتحضّر أنواع الحلويات المختلفة، وكانت العادة قديماً في بعض القرى أن يتناول المدعوون الطعام باليدين، ويتخلل هذا الحفل الأناشيد الخاصة بالمناسبة وتستخدم المزاهر والدفوف.

طقوس ظهور أسنان الأطفال:

قديماً كان أهل الطفل يتناقلون هذا الخبر حتى ينتشر في الحارة، وتأتي التهاني والمباركات من الجيران والأصحاب. وهنا أهل الطفل يقومون بتحديد يوم معين للمباركة، وتقوم أم الطفل في هذا اليوم بتحضير الطبق المشهور لهذه المناسبة وهو (السليقة) المكون من الحبوب كالقمح والرز، وتوزعه بطبق على الجيران جرت العادة ألا يعود إلا بداخله هدية للطفل.

الاحتفال في الأعياد الدينية:

يبدأ الناس قبل العيد ببضعة أيام بشراء الملابس الجديدة وبصنع المأكولات الدسمة والحلوى الخاصة بالعيد، وفي صباح العيد بعد صلاة الصبح يذهب الناس إلى مقبرة البلدة لزيارة موتاهم وقراءة القرآن، وتحمل النساء بعض الحلويات لتوزعها على الأهل والأقارب الموجودين بجانب القبور الأخرى. يقرأ الرجال في المقبرة ما يسمى بالتهليلة (وهي تلاوة بعض سور القرآن ثم تلاوة سورة ياسين ثم التوحيد مائة مرة ويقوم بعدها أكبر الرجال سناً وأكثرهم وجاهة بقراءة بعض الأدعية التي تذكر في هذه المناسبة(ثم يغادرون المقبرة ويتجه الرجال إلى الجامع مصطحبين معهم أطفالهم. كانت الشخصيات الرسمية في البلدة تشارك في صلاة العيد حيث يكون المسجد مزيناً ومناراً بكثير من الأضواء لهذه المناسبة. يقرأ إمام المسجد خطبة العيد ثم تتم الصلاة ويخرج الجميع بعدها من المسجد يتبادلون عبارات التهنئة بالعيد (مثل: كل عام وأنتم بخير – كل سنة وأنت سالم – تنعادوا لأمثاله).

اعتاد الناس زيارة بعضهم ليتبادلوا التهاني في هذه المناسبة يتناولون الحلوى والتين اليابس والجوز والزبيب والقهوة المرّة، وفي حال كان هناك أحد متوفي في ذات العام يقدمون التعازي مجدداً ويقرؤون القرآن والأدعية.

كان الزوار ملزمين بتناول الطعام في كل بيت يزورونه، حيث كان كل بيت يصنع الأكل في قدر كبير ويضعه وسط الغرفة محاطاً بالملاعق ويقوم كل زائر بتناول ولو القليل من الطعام المعد لهذه المناسبة والذي يختلف من أسرة لأخرى حسب الإمكانات المادية لها. ولا يجوز الاعتذار عن الأكل لأن ذلك يعتبر إهانة لأصحاب البيت.

بعد تبادل المعايدات يجتمع الناس في إحدى الساحات ويشربون العرقسوس ويبدؤون الألعاب المختلفة كالسيف والترس أو رقص الدبكة أو غيرها.

وفي ثاني أيام العيد اعتاد كبار العائلة الاجتماع ليختاروا بعضاً منهم لمعايدة باقي العائلات في البلدة ممثلة بكبارها وزعمائها، وعلى الطرف الثاني أن يرد هذه الزيارات. وكان الأخوة المسيحيون يشاركون في التهنئة لأخوتهم المسلمين بهذه المناسبة من خلال قيام بعضهم من كبار السن وذوي الجاهة بمرافقة خوري البلدة لزيارة كبار الأشخاص من المسلمين.

إن كل ما ذكرناه حول العادات السورية يمثل حقبة كبيرة من الزمن عاشها السوريون بكل تفاصيلها وأبعادها بصورة نابضة بالحياة، وهي تروي أصالة سوريا التي تعتبر دون منازع حاضنة أقدم عواصم العالم، التي ستظل شامخة رغماً عن كل من يريد بها سوءاً أو أذى.

الروائي السوري فادي عزام:

مشكلة سورية ليست مع البعث ولكن مع سرقة الاستقلال والحرية وتحويل البشر إلى عبيد

النساء في روايته الأولى "سرمدة" يمتحنّ التابو والتقاليد الدرزية

■ حاوره: حسام الدين محمد

الدوحة "القدس العربي": كانت صحيفة "القدس العربي" أول من احتضن فادي عزام كاتباً صحافياً وكاتب زاوية، فلفتت كتاباته تلك الأنظار إليه وأثارت الجدل في أكثر من مكان ووسيلة إعلام فضائية، وما لبثت روايته الأولى "سرمدة" أن دفعت به أكثر تحت الأضواء مع اختيارها للقائمة الطويلة لجائزة "بوكر" العربية، ثم جاءت الثورة السورية لتجعله اسماً محبباً لدى آلاف السوريين الذين يتابعون تعليقاته الجارحة والساخرة على الوضع السوري وعلى الأفكار والأماكن والأشخاص.

شخصية عزام مثل كتاباته، هادئة مع كثير من إمكانيات التفجر الغير متوقع، غاضبة مع كثير من المحبة، عميقة مع نتوءات والتواءات ومماحكة أحيانا.

فادي عزام في روايته "سرمدة" (وفي كتابه الشعري "تحتانيات") شاعر فذ وروائي مختلف.

في "سرمدة" يقدّم عزّام رصداً شغوفاً لمكان الولادة وأساطير هذا المكان وحكاياته المفتوحة على شبابيك المفاجأة. ألم كثير يفضي غالباً إلى إقفال الدائرة، ومعاينة للتفاصيل تفتحها على اللامتوقع، ثورة كانت أم تمرداً فردياً.

أجمل ما في "سرمدة" هذا التعبير الصوفي الثريّ عن فساحة المرأة وعالمها الواسع.

يتقمص فادي عزام في "سرمدة" شخصيات نسائه اللاتي استلمن، بتكليف من الطبيعة الإنسانية أو من اللّه، عجينة المكان ليقمن بتشكيلها على حسب أهوائهن، وليفشلن (كما في نظرية جورج لوكاتش القديمة العتيدة عن فشل وانحطاط الفرد بمواجهة الجماعة) في هذا الصراع الذي لا يمكن الانتصار فيه على التقاليد والطبيعة، لولا، أن هذه الحكايات هي انتصارهن الأكمل، أحيانا على طريقة جدتهن شهرزاد، التي نجت من السياف، وأحياناً بوقوعهن تحت سكين الذبح، وأحيانا كثيرة أخرى بتلاعبهن بالعالم المحيط بهن دون أي حدود ولا اهتمام بالمصير.

يلخص عزام أيضا امتحان الأسطورة لنفسها ولانغلاقها على دائرتها ملتهمة الداخلين في أقدارها دون رحمة كما التراجيديات اليونانية من خلال الصبية الدرزية التي فنتنت بشاب غريب عن القبيلة والديانة وحين انفتح الباب لها للهروب الأخير عادت إلى مذبحها بإرادتها لتقفل القصة كما تشتهي الأسطورة أن تصير.

إلى انشغاله بالرواية والشعر والكتابة الصحافية، يتواجد عزام في مكانه الطبيعي كمثقف عضوي وجد نفسه في خضمّ الجماعة الأكبر معاركاً الدكتاتورية بكل جوارحه. في هذا اللقاء القصير معه الذي جرى بعد مشاجرات نظرية على هامش ندوة "وطن يتفتح في الحرية" في الدوحة، حاولت حكّ حجر عزام فكان هذا الحوار:

| في أي لحظة وكيف قلت في نفسك: أنا مع الثورة السورية؟

| | بدأت القصة بأمنيات مع أحداث تونس وصارت قريبة من الوجدان والإحساس، ومع مظاهرة الحريقة بوسط دمشق بدأ الاستعداد للحدث، ومع سقوط أول شهيد في درعا، محمد جوابرة، صار الانحياز الواضح. هذا ما حصل باختصار شديد

| ما هو السؤال الذي يشغلك كمثقف حاليا؟

| | لا يشغلني سؤال إسقاط النظام. هذا أهم شيء يجب أن أشير إليه ما يشغلني فهم الثورة التي هي إعلان غضب. الثورة أسقطت الرمز وذهبت إلى اللاعودة. فهمي لهذا معناه الآن الفراغ بداخلي كيف سيمتلئ.

أنت خلصت من الدكتاتورية وأعلنت غضبك وأسقطت الرمز وحققت معجزة إسقاط ما لا يسقط وذهبت في طريق اللاعودة وهذه الحالة هي الثورة الجمعية أما في الحالة الفردية فالآن لديك طريق مجهول. هؤلاء فهمتهم والآن لدينا هذا المجهول أليس ليس أبدا إسقاط النظام بل ماذا بعد إسقاط النظام. الذهاب إلى اللاعودة في الثورة السورية اقرب نموذج له هو سبارتاكوس. هذه ثورة عبيد والعبد يعرف تماما انه في حالة عودته عن ثورته هو مقتول حتما فالثورة السورية تفهم ذاتها بهذا المنحى. في العادة العبد لا يغضب ولا يسقط رمزه ومستحيل أن يثور فإذا ثار فهذه ثورة عبيد لا رجعة فيها. اللاعودة تعني أنني لا يمكن أن ارجع عن ثورتي عن غضبي عن إسقاط الرمز قبل تحقيق هدفي هنا يبدأ سؤال الثورة كيف يتحقق الهدف أين نريد أن نروح ما هي الطريقة؟ هنا توجد أسئلة وهناك واجب على الجميع الإجابة عنه.

| ما الشيء الأول الذي ستفعله بعد سقوط النظام السوري؟

| | النظام سقط حقيقة كتركيب. لقد سقط وسقطت حوامله الأخلاقية والثقافية، وجزء كبير من الحوامل السياسية سقط أيضا. بقي من النظام الشيء المادي الفيزيائي الخاص به واعتقد انه لا يمكن إسقاط النظام قبل تشكيل ما يشبه نظاما بديلا. الأهم من سؤال كيف تسقط النظام هو ماذا بعد إسقاط النظام. لا احد تعامل جدية مع السؤال الثاني وهو ماذا بعد إسقاط النظام.

أول شيء سأفعله هو أن أعلن أنني كاتب ومثقف معارض سلفا لما هو قادم، واصلا أنا بدأت من هذه اللحظة لأنه في حالة كان كل الناس فرحين بالثورة وإسقاط النظام وإذا لم نكن يقظين لحظة إسقاط النظام سنخسر الكثير. هي لحظة نقدية يجب أن يتوقف عندها الجميع.

وبشكل إنساني سوف أزور داريا واذهب لتقبيل ابن غياث مطر. هذا أول شيء أريد أن افعله بشكل إنساني تحديدا. غياث مطر بالنسبة لي هو واحد من رموز سورية الجامعة وشهيد سورية كلها.

| روايتك سرمدة دخلت في القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية كيف استقبلت هذا الخبر؟

| | باختصار أحكيك بصدق: استقبلته بفرح غامض ودهشة للوهلة الأولى مع أمنية حقيقية داخلية وصادقة ويعرفها أصدقائي والقريبون مني أن لا تذهب إلى القائمة القصيرة لسبب بسيط لأن "سرمدة" ستكون بدائرة ضوء مؤذية وأنا غير مهيأ وغير راغب في ذلك لا أريد أن تقرأ سرمدة لأنها في البوكر أريد أن تقرأ سرمدة لأنها نفسها فانبسطت للقائمة الطويلة لأنها نبهت إليها ولكنني خفت من إدخالها في القائمة

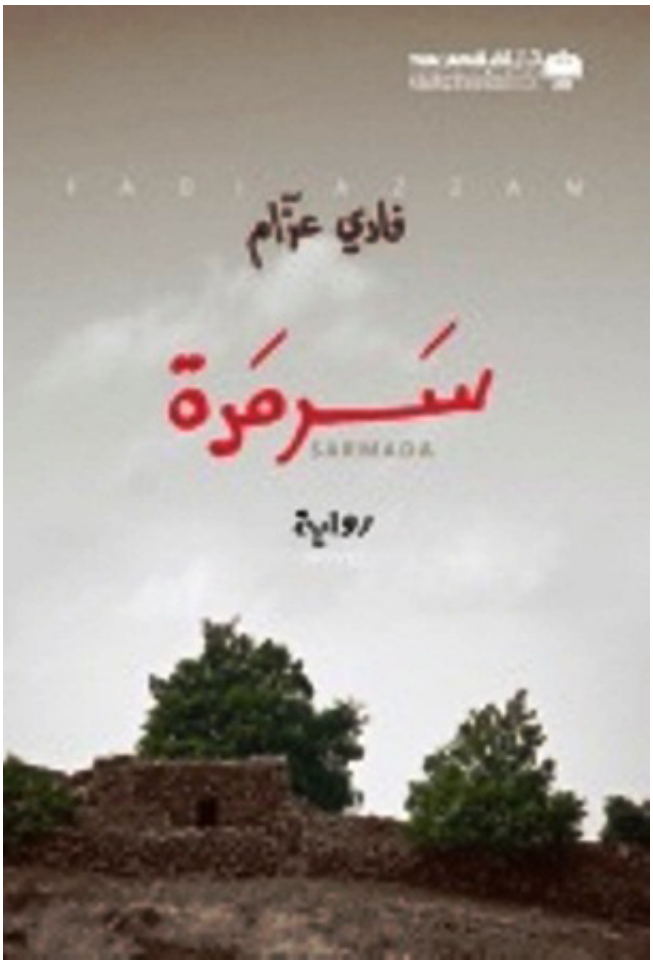

القصيرة بالشكل المؤسساتي العربي لأنني كنت غير مهيأ ولا اعرف أن كنت سأصبح مهيأ لازم أضيف شغلة سرمدة وسيلة تعبير طلعت بشكل روائي أنا لست روائيا.

أنا لا أحس بنفسي روائيا. عندي شيء أريد أن أقوله لو لقيت فرضا لو أتقن تقنيات إخراجه بالسينما لاشتغلت سينما واذا كان يمكن التعبير عنه شعريا لكتبت شعرا. طاقة التعبير لدي طلعت على شكل رواية أنا ما بعرف إذا كتبت رواية ثانية فسأتجه إلى المشروع الروائي لكنني لا اعرف أنني سأتجه لو اتجهت إلى القائمة القصيرة لتم تكريسها وربما لن اكتب أي رواية في حياتي.

| في ندوة إصدار روايتك بالانكليزية سألتك إحدى القارئات الانكليزيات عن كيفية تمثلك لمشاعر المرأة في روايتك، ما هو جوابك على ذلك؟

| | أنا لا أؤمن انه في رجل وفي امرأة في الفيزيولوجيا في بشري يستخدم وظائفه الطبيعية بطرق مختلفة لا اختلاف إنسانيا بين الرجل والمرأة هناك مؤنث ومذكر بكل داخل بشري. أسوأ شيء أحسه بالحياة هو التصنيف الحاد أدب نسائي أو تحرير المرأة هذا الفصل الحاد بين كيان واحد، خلال الكتابة أنت تشعر إنسانيا بامرأة تقتل وتحاول أن تحتل جسدها وتتلقى معها السكاكين وينفصل رأسك مع رأسها. ضع نفسك في هذا المأزق الوجودي الاجتماعي التي هي فيه واترك لمخيلتك العنان فتظهر معك أحاسيس مدهشة. يقال في الشعر إذا أردت أن تكتب عن حصاة يجب أن تكونها لأن في الحصاة يتلخص التاريخ الطبيعي فكيف إذا أردت أن تكتب عن جريمة شرف إضافة إلى أنني لم ادن أخوتها الذين قتلوها فانا وضعت نفسي في مكانهم. هم قتلوها لأنهم خاضعون لقانون ديني وسياسي.

| فهم الأنوثة هو إحساسك بالشخصية نفسها يعني أليس غريبا على كاتب ذكر فيزيولوجيا أن لا يحس بالمرأة.

| | فلوبير كانت تأتيه الأم الحيض عندما كان يكتب مدام بوفاري حتى انه قال أنا مدام بوفاري. يمكن من هذا الجانب قدرت أن أصل إلى بعض الأحاسيس التي تحسها من هي مختلفة عني فيزيولوجيا.

| قمت بتناول بعض الاعتقادات الدينية والطقسية الدرزية في الرواية، وهو أمر يعد خرقا لتابو معين؟

| | الجانب الروحاني بالرواية كان محاولة لتفكيك البنية الروحية للمكان والاقتراب منها بطريقة ما.

التقمص كان شبه مصيدة لي ككاتب وبالنهاية ما عاد مهما بحد ذاته وصار الموضوع مختلفا بالنسبة لي. الرواية كان لديها نهاية مختلفة غيرت النهاية بعد أن أرسلتها للناشر الانكليزي قبل العربي تم تغيير النهاية فيها التي كان رأيي في التقمص فيها محسوماً لكنني اكتشفت أنني غير مؤهل لإعطاء رأي قطعي في هذا الموضوع فتركت النهاية مفتوحة للقارئ.

| رافي بطل الرواية رجع إلى باريس والتقى بالسيدة التي أخبرته بقصة تقمصها لكن أنا لا علاقة لي أن كان سيرجع ويحكي لها ما يريد.

| | بكل بساطة هذه كانت تقنية قد تكون ناجحة أو تكون فاشلة. إذا أنت زرت أي ضيعة سورية ليس ضروري أن تكون سرمدا واستمعت لأحاديث الناس وقررت أن تنقب في أحاديث هؤلاء ستجد أن الناس يتحدثون عن المبالغات كأنها حقائق. الراوي نقل هذه الحقائق بلسانه. تخيل امرأة صارت أثداءها بهذا الحجم الضخم كما في الرواية. هذا السرد الشعبي الراوي نقل لحظتين: الواقع والحكي الشعبي الأسطورة الموجودة بالداخل لأنه عنده مهمة خاصة لكنه اكتشف انه يعيد اكتشاف ذاته من هنا دخل الأسطوري وهذا بحث كبير هائل ويسمونه واقعية سحرية وأنا اسميه واقعية حقيقية. أنت يوم تسمع امرأة درزية تتكلم عن مولاي العقل هادي المستجيبين كيف قتل المئات بسيف واحد وكيف بضربة أخرى قتل العشرات. هذا يحكى عنه كحدث واقعي يفوق الخيال لكن الناس مقتنعة أنه حصل هذه واقعية، واقعية أنا تربيت في هذا الجو ولم يكن هناك مكان للتشكيك فيه مثلما ليس من الممكن التشكيك بالسياسي الواقعي الأبدي القديم وفي قرى تأخرت فيها الكهرباء مثل قريتي كان هناك واقع يشبه الأسطورة.

| قدمت في الرواية شخصية طريفة للبعثي؟

| | أنا ليس لدي حقد على البعثيين والناس تقع بخطأ إساءة فهم هذه الفئة البعثية. هناك قسم كبير من هؤلاء امنوا بالبعث وعندما كنا صغارا كانت السياسة البعثية تقدم على شكل مقدسات بحيث كان الكبار في الأعياد ينقطوننا على شعار وحدة حرية اشتراكية ثلاث فرنكات أو ثلاث ليرات. البعث دخل في الأرياف السورية وكان يتناغم مع إحساسها. الأستاذ حمود في الرواية هو شخص نبيل وهو مؤمن حقيقي ليس بنفسه. هناك إيثار سوري تعودناه أن سوريا هي جزء من كل هي جزء من الأمة العربية وكان يتبرع بمرتبه لأشقائه من العرب من المحيط إلى الخليج وصدمته في سنة 1967 ما تزال حاضرة حتى اليوم.

الثورات العربية كان يجب أن تحصل في السبعة والستين وهي عمليا الرد المتأخر على تلك النكسة وقبلها على النكبة. النكسة كانت اخطر من النكبة.

مشكلة السوريين ليست مع البعث. مشكلتهم أن استقلالهم سرق بشكل منهجي ومنظم ثم تمت سرقة الحرية ثم سرقة المخيلة إلى أن تحولوا إلى سباراتاكويين والى عبيد حقيقيين. الأستاذ حمود هو من الأشخاص الحقيقيين الذين أحببتهم.

| هناك حضور طاغ وأساسي للمرأة في روايتك؟

| | اللجاة أو حوران هي مكان ساحر حقيقة وهو مكان اعذر (من العذرية) علاقة الإنسان فيه بالطبيعة هائلة، والمرأة فيه حاضرة بقوة شديدة في كل شيء.

هو مكان قاس ووعر وحاد بالتفاصيل الشكلية والمرأة فيه تخلق التوازن لأنها جزء حقيقي من الطبيعة لتستمر الحياة، والرجل الفحل أو الثائر والقوي بالإرث العربي القديم هو يفتخر بأنه اخو فلانة، فسلطان الأطرش كان اسمه اخو سمية.

المرأة حاضرة لأنها ارسخ في المكان والرواية رواية مكان. كان كل الرجال يهاجرون وينزحون أما المرأة هي الأرسخ هي المنتظرة وهذه حقيقة تعرضت لها كثير من المناطق السورية تحديدا المنطقة التي فيها سرمدة هاجر ذكورها إلى ما وراء البحار إلى فنزويلا والخليج وأسسوا لجيل الهجرة الجديد فبقيت المرأة حافظة المكان.

بطلة الرواية ذهبت بالغريزة الطبيعية هي مثل البقرة التي ذبحت في جملة تقال عنها تركت أمان العادة إلى فضول المجهول ولحقت غواية العشب الطري الذي طعمه مختلف هذه البنت لحقت العواطف خارج جغرافيا مليئة بالسطوات فالاثنتين فتحتا طريقا ما كانتا قادرتين على تكملته نهاية البقرة هي الموت حتى جلاديها وكانت هيلا منصور تعرف تماما ما فيها تروح بأمان قبل أن تحرر أخوتها منها لأنها أثرتهم وهم انحكموا بأنهم لا يمكن أن يستردوا حياتهم الطبيعية إلا برجعتها. لقد رجعت لأنها محكومة بالمكان لقانون المكان.

| وهل كان موت هيلا فقط لتأكيد دكتاتورية الأسطورة؟

| | أسألك أنا أيضا: لماذا يحب أيا كان أن يموت بمسقط رأسه؟ البطلة محكومة بقوانين المكان. لاحقا بعد مقتل هيلا بدأت الناس تتحرر من المكان. دم هيلا، بهذا المعنى، فتح مجالا لأخريات وبذلك زدن الحد المسموح لك الذي يمكن للمرأة أن تمشي أو تدور فيه.

كان صعبا عليّ كقارئ عودة البطلة إلى قريتها لتذبح.

هذا أمر كان لا مناص منه بالنسبة لي. الدائرة مغلقة. ولا يمكن للجماعة البشرية المسماة بالدروز أن تخرج عنه.

عن القدس العربي

الصورة من إحدى جداريات مدينة سراقب بإدلب

عن الثورة والصمود

■ عروة المقداد

يتحول تشييع الشهداء في الثورة إلى طقس احتفالي مهيب. عرس؛ لا بكاء أو مراثٍ أو ندب. ليس ذلك احتفالاً بالموت، بل احتفال بالصمود. صمود الناس أمام القسوة والألم. ولم يكن الدم مفجر الثورة، محرك الناس في الخروج إلى الشوارع، لكن استشهاد محمد جوابرة وحسام عياش في 18 أذار كان دليلاً على استعداد الشعب السوري لتقديم كل ما لديه في سبيل الحرية.

والثورة ليست بحاجة إلى المراثي، لأن الناس يرتفعون بالألم من القيمة الذاتية إلى القيمة العامة. لا يتعلق الأمر بالفقد بل بالعطاء، فالشخصي يدخل حيز العام، ويتلاشى الشعور بالخسارة ليحل محله الاحساس بالتماسك الذي يشكل الصمود. وأمام حالة الصمود الاستثنائية فإن الإعلام العالمي يركز على الحالة البكائية للثورة، والكثير من الناشطين يقع في ذلك الفخ. يستجدي مشاعر العالم، يندب البعض في حين أن التفاصيل اليومية للناس مليئة بالسخرية من ذلك الواقع. إن الإعلام العالمي كما إعلام النظام هدفه تشويه الثورة أو توجيهها بحسب مصالحه. أصبح جلياً أن لا أحد مهتم بنجاح الثورة السورية إلا بالقدر الذي يناسب مصالحه. لذلك يركز الإعلام على تلك النقطة متجاهلاً الكثير من جماليات الثورة التي تبث روح معنوية عالية لدى الناس. وما احتج الناس على تهميشهم اعلامياً في الكثير من المناطق إلا خوفاً منهم على تهاوي الروح المعنوية لدى الثوار، فالناس البسطاء إنما يرون قيمة ما يفعلونه على شاشات التلفاز. يشعرون بالغبطة حين يرون بطولاتهم وأن ثمة من يشاركهم صمودهم، ويجب أن لا يقتصر الأمر على الشاشات إنما يجب أن تمجد بطولاتهم في الأشعار والقصص والأفلام وأن تصل إليهم ليروها هم ويرون جمال أنفسهم.

تنبه إعلام النظام إلى تلك النقطة، فمنذ اندلاع الثورة ركز على بث العزم والصمود في صفوف مواليه. وحتى إنكاره لوجود الثورة هو شكل من أشكال بث الصمود. وقد عرف كيف يدير المعركة إعلامية. ركز منذ البداية على مؤسسة الجيش، ونقل صورة الجيش المغوار حامي البلاد من المؤامرة. أبطاله الذين يخوضون معارك الشرف والبطولة. ضد المسلحين الخونة والعملاء المتآمرين مع الصهاينة والغرب. كما أنه استخدم ما يقول عنه جورج أورويلفي، روايته 1984 التفكير المزدوج، صدق وإن كانت تعرف أن ذلك غير صحيح، وهذا الإنكار يتيح لموالي النظام آلية في التماسك والثبات حتى مع اقتراب الخطر بشكل كبير.

الثورة ليست بحاجة لآلية التفكير تلك، وليست بحاجة إلى أن تكذب الواقع أو أن تضخمه. لكن الثورة في معركتها ضد النظام هي أشد الحاجة إلى صمود الناس على الأرض. وهم بحاجة إلى تمجيد صمودهم وبث روح العالية فيهم. ومع نزوح الكثير من أبناء المدن والمناطق التي تقصف وبالرغم من الحاجة الشديدة إلى الماء والغذاء والمأوى، فإنهم بأمس الحاجة لإعادة ترميم ما انكسر من هذا الصمود. ليس منّة أن يستقبل نازح في بيت أو مدرسة. إن نزوح أي عائلة إنما هو سبب بقاء الكثير في منازلهم. والتعامل مع النازحين على أنهم ضحايا من الممكن أن يؤثر سلباً على روح الصمود والتماسك. أنها قضية في غاية الحساسية، وكلمة نازح بحد ذاتها من الممكن أن تشعر بالانكسار. إن الدول المجاورة تفتح للاجئين مدارس وتستقبلهم فيها. ولكن ما معنى أن تفتتح مدرسة لأخ لك كان صامداً في الثورة، من المفترض أن تفتح لهؤلاء الأبطال البيوت لكي يستريحوا فيها ويعودا إلى بيوتهم لتستمر معركة الصمود.

وفي كثير من الأحيان يتم تجاهل الصامدين في بيوتهم. ثمة من لم يستطيع حمل السلاح أو المشاركة في مظاهرة، لكنه أبى الخروج من منزله. وبقي فيه تحت القصف متحملا شتى أنواع القهر. وليس صحح أن الجيش الحر هو السبب الوحيد في أن النظام يقصف المدن. صحيح أنّه وجوده في بعض المناطق سرع عملية القصف إلا أنه كان قادماً لا محالة، ثمة الكثير من المناطق والمدن التي تتعرض للقصف ولم يكن فيها جيش حر. القصف يستهدف عزيمة الناس، وكسر صمودهم، تهجيرهم بالكامل، وزعزعة الصورة الصلبة عنهم، تحويلهم إلى مشردين طريدين في مختلف أنحاء البلاد والدول. في انتظاراً الصدقة والإحسان، لتنكسر صورتهم الداخلية بينهم وبين أنفسهم، البطل يتحول إلى متسول لا حول ولا قوة له، يفقد حتى احترامه الداخلي.

نجاح الثورة مرتبط بصمود الناس، الصمود المعنوي لهم. أنها تشبه قضية الاعتقال. إن الضرب لم يكن أسوء ما يلاقيه المعتقل كما بينت شهادات الكثير منهم، بل إن أكثر ما قاسوه هو الإذلال النفسي لكسر صمودهم، وكما قال أحد السجانين في شهادة له: كنا نتمنى أن يكون هنالك روح أخرى للسجين الذي يتحدانا لنحطمها مرة أخرى، وفي النهاية المعتقلين الذين كسر صمودهم الداخلي، خرجوا من المعتقل وقد تخلوا عن الثورة.

شهداء سوريا

مجموع الشهداء (18529)

دمشق: 857
ريف دمشق: 2387
حمص: 5754
حلب: 1134
حماه: 2051
اللاذقية: 366
طرطوس: 37
درعا: 1838
دير الزور: 1170
الحسكة: 123
القنيطرة: 33
الرقة: 72
ادلب: 2691
السويداء: 16

1846 عدد العسكريين
16683 عدد المدنيين
923 عدد الإناث
480 عدد الأطفال الإناث
1221 عدد الأطفال الذكور

المصدر: مركز توثيق الانتهاكات في سوريا 4 / 8 / 2012
http://vdc-sy.or